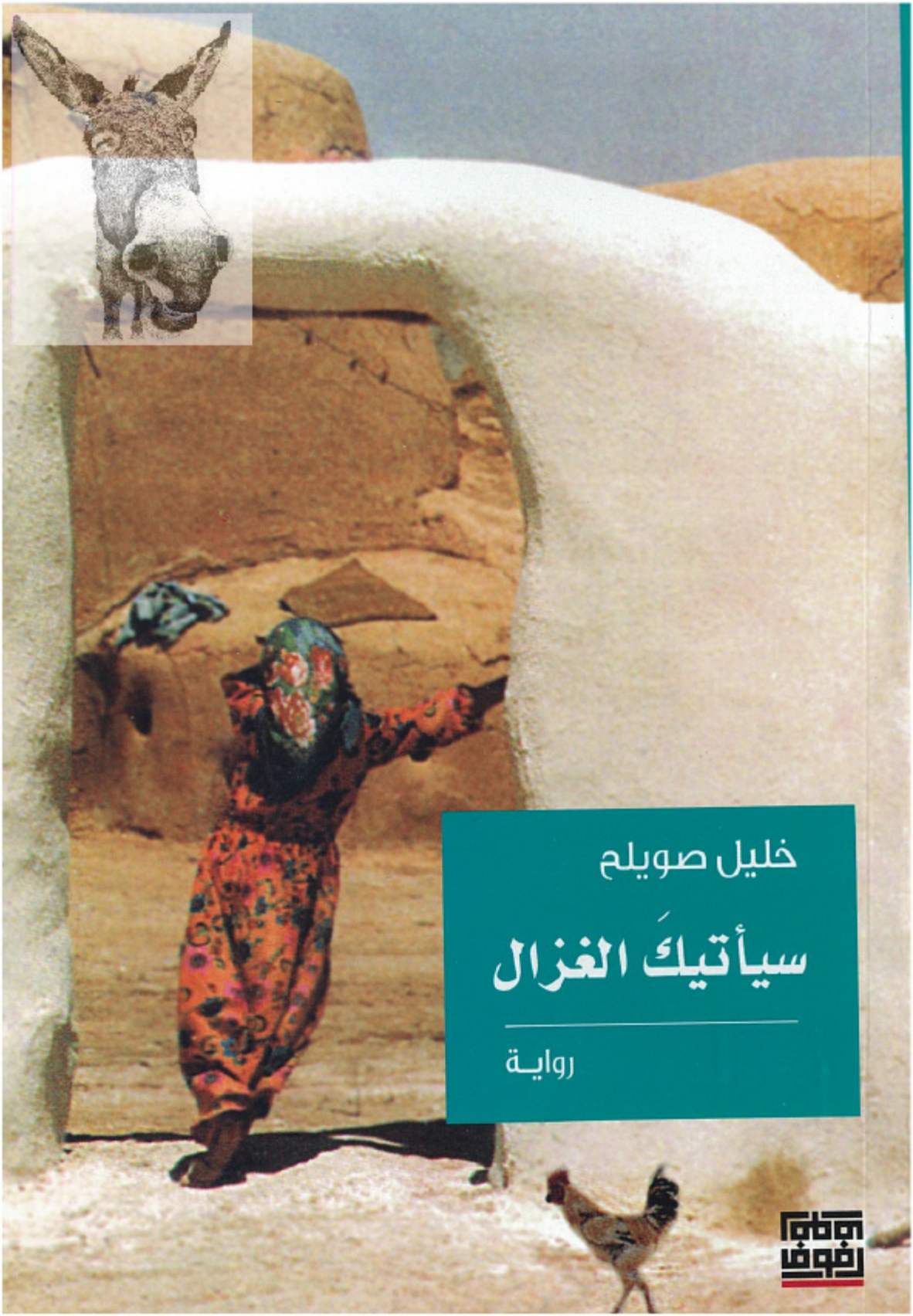

خليل صويلح

سيأتيكَ الغزال

رواية

سيأتيكَ الغزال

الكتاب: سيأتيك الغزال

المؤلف: خليل صويلح

الطبعة الأولى: ٢٠١١

حقوق الطبع محفوظة

دار رفوف للنشر

دمشق - هاتف: 00963 11 4476447/8

بدعم من الصندوق العربي للثقافة والفنون - أفاق

www.rufof.com

info@rufof.com

صورة الغلاف: الطاهر جميعي

العمليات الفنية: BJ

خليل صويلح

سيأتيكَ الغزال

رواية

(الديرة طلبت أهلها)

مثل بدوي

حيّ المنازل بين السّفح والرّحب/ لم يبق غير وشوم النار والحطب

الأخطل

1

هناك مشهد يطاردني منذ أشهر!

لا أعلم تماماً كيف استحوذ عليّ أخيرا بكل تفاصيله.

هذا الصباح استيقظتُ كمن لدغته أفعى بخسارة ساعتين من نومي المعتاد. أفكّر بالمشـــهد نفســـه، وكأنه وقع للتو: طفل في السابعة يلهو في بريّة مفتوحة على العراء.. طفل يمسك بخيط مربوط بذيل يربوع خائف يجـــري أمامه كي يدلّه على مخابئ اليرابيع الأخرى. ســـيلوذ اليربوع في جحر صغير، وسيكون الجحر بالتأكيد ليربوع آخر مختبئ، فهو بحاسة شمّه الحادة، لن يغامر بدخول جحر لا يخص سلالته. اللعبة تبدأ بحفر الجحر الأول وإخراج اليربوع الثاني ليدل

على يربوع ثالث، ثم رابع، في صحراء لانهائية، بين رعاة يسلّون عزلتهم بإخراج اليرابيع والعقارب وممالك النمل من مخابئها.

العقارب لا تحتاج إلى جهد كبير في إخراجها، يكفي أن يميّز أحدهم فتحة النار الضيّقة والتراب الناعم الذي يحيط بها، ثم يتبوّل داخل الفتحة، حتى تخرج العقرب مبللة بالرذاذ، طلباً للنجاة، لتجد نفسها بعد خطوات مربكة من خروجها، في حفلة تعذيب مسلّية لهؤلاء الأطفال اللاهين تحت شمس الظهيرة اللاهبة. أحدهم يضع عقرباً داخل زجاجة، ثم يضع عقرباً آخر، لتبدأ معركة ضارية بينهما، قبل أن ينتهيا إلى جثتين هامدتين. سينتبه أطباء شعبيون إلى أن السم الذي تفرزه العقارب المشوهة يصلح لأن يكون ترياقاً لمعالجة لسعة العقرب، وذلك بدهن مكان اللسعة بهذا الترياق، بعد جرح مكان اللدغ. لا أعلم لماذا كان مشهد الطفل وصيد اليرابيع، على وجه التحديد، يلح عليّ باستمرار طوال الأشهر الماضية، مؤجلاً مشاهد أخرى، ربما كانت أكثر أهمية في ترميم طفولة بعيدة وخاسرة وعزلاء. لكن صورة طفل السابعة في اكتشافه برّية واسعة ونباتات وحشرات وحيوانات، وأودية ومغاور وكهوف، كان الرعاة يجوسون أسرارها، أغرتني بإعادة تركيبها الآن، في هذا الصباح الربيعي من أواخر آذار.

مشاهد وصور مغبّشة تومض مثل برق في ليلة معتمة.

تغيب ســـنوات بأكملها في هباء النسيان، تهبُّ، وتنطفئ في موقد الحواس، تتداخل، وتتشظى، ترتسم وُتمحى، تلحُّ، وتبتعد، ثم تشرقُ مرةً أخرى!

خطوط واهية ترتســـم على هيئة طفل يقبض بأصابع متعرّقة طرف ثوب أمه، أمام خيمة ســـوداء مصنوعة من شعر الماعز، يرقب مشهد دركيين على حصانين. كان الأب يعدّ حفرة داخل البيت، كي يخبئ بندقيته غير المرخّصة، ثم يغطي البندقية ببســـاط، ويدعو الجدّة كي تستلقي فوق البساط بوضعية المرأة المقعدة. سيفتش الدركيان المكان بفوضى وخشونة وتهديد، ثم يغادران، دون أن يكتشفا مخبأ البندقية. التفاتة من أحد الدركيين إلى الخلف، على بعد مئات الأمتار، استدعت انتباهه إلى أن الجدّة المقعدة، كانت ترقب رحيلهما، إلى جانب بقية العائلة. أوقف حصانه لبرهة، ثم قرر أن يعود إلى المكان. اتجه مباشرة إلى البساط، أزاحه بمقدمة حذائه، رفع البندقية من مكانها، ووضعها أمام عيني الأب بتحدٍ. لم تفلح رجـــاءات الأم وابتهالات الجدة في ثـــني الدركي عن اعتقال الأب. جرّه أمامـــه بعنف، رابطاً يديه في حبل، وساقه وراءه، بعد أن امتطى حصانه، ثم ابتعدا. لقد فقدتُ أبي منذ تلك الحادثة، التي ســـتتكرر على نحوٍ آخر، في حوادث مشابهة،

فالغياب المتقطع كان نوعاً من الفقدان.

هل الربيـــع وحده من قادني بأذرعٍ من عشـــبٍ وأقحوان إلى تلك البراري البعيدة، في هذا التوقيت المتأخر نحو أربعة عقود كاملة؟ ربما، ذلك أن مشـــهداً آخر لطفل في السفوح والهضاب البعيدة، بعد أن تتكشـــف أيام الرعد والبرق والمطر عن يومٍ مشمس، كان يتماوج بالتناوب مع هذا المشهد، ولكن بتفاصيل أقل.

يعرف البدو بخبرة أصيلة ومتوارثة أماكن هبوب الكمأة في الأراضي البكر، وكيفية نبشـــها مـــن دون أخطاء. مـــن جهتي، كنت ألهو باكتشاف أماكن بزوغ الفطر وجمع كمية كبيرة منه، متباهياً بقدرتي على العمل، والركض من فقع فطر إلى آخر، وأحياناً أتوقف عند نبتة توّيس بحفر جذورها وتقشير بصلتها والتهامها على الفور، لأكتشف أن قافلـــة الفتيات قد ابتعدت مســـافة طويلـــة، فألحق بها لاهثاً إلى هضابٍ بعيدة. لم يكن أبي يسمح لي بمغامرات من هذا النوع، لكن غيابـــه المتواصل في قرى بعيدة، أتاح لي مثل هذه الفرصة، إلى فرصٍ أخرى، كأن ألتحق برعاة الأغنام للتسلية، وصيد اليرابيع الضالة.

كان الرعاة يجتمعون كل ظهيرة في وادٍ معشوشب عند تخوم مناجم الملح، يشعلون الحطب اليابس في حفلة شواء لليرابيع التي اصطادوها، ثم يلتهمونها بشـــهيّة وصخب. أحدهم ناولني يربوعاً مشوياً، لكنني

رفضت أن آكله، مستهجناً طعمه أو إنني خشيت خوض هذه المغامرة.

لدي رغبة الآن بالقول إنني التهمت اليربوع بشهيّة، وطالبتٌ بحصتي كاملةً من الصيد، وتسلقتُ مغاور معتمة لجمع بيوض الطيور، وطاردت سحليّة، ونصبتُ شباكاً لطير الحنّاء، وعبثتُ بعش سنونو في أعلى سقف غرفة الضيوف، وبترتُ رأس أفعى بضربة فأس واحدة، واشتبكتُ مع ذئبٍ، كان يحاول أن يسطو على خروفٍ ضال، متكئاً على أحاديث الرعاة ومغامراتهم التي كانت تدهشني حقاً. مغامرات أبطالها ضباع وذئاب وطيور وحمير، وسعالي تخطف الرجال إلى أعماق النهر، ثم تعيدهم إلى الشاطئ بأظافر طويلة، وقد اكتسبوا قدرات سحرية في شفاء أمراض مستعصية، إذ يكفي أن يمسّد أحد هؤلاء الرجال المحظوظين بيده على مكمن الألم حتى يشفى صاحبة على الفور.

(كان محمد الحمود على يقينٍ تام بأنه قد ورث قدراتٍ سحرية في علاج المرضى، عن جده الذي خطفته السعلوة ذات يومٍ بعيد، إلى أعماق النهر، وأنجبت منه بنتاً، قبل أن يغافلها، ويهرب إلى اليابسة).

في حكايات من هذا المقام، لا يستنكر أحد صدق وقائعها، أو على

الأقل، قدرة الكائن البشـــري على العيش تحت الماء، مدة طويلة قد تتجاوز السنة، وكأنه فوق اليابسة!

للذئب حكاية مختلفة، إذ يروى أن من يلتهم عين الذئب، سيجافيه النوم، ويبقى متيقظاً طوال الليل بحاســـة شمّ قوية تلتقط دبيب النمل في الظلام، ولكن من يجـــرؤ على التهام عين ذئب؟ يضحك الراعي الحكيـــم ويقول «أنتم لا تعلمون أن الجزء الأيمن من جســـم الذئب أكله حلال، أما الجانب الأيسر فهو حرام».

تحت ظلال ضوء يتراقص في عتمة غرفة النوم، ترتســـم أشكال مخيفة على الحائط المقابل، على هيئة حيوانات أسطورية، أتسللُ، في لحظة شجاعة مستعارة من حكايات الرعاة، إلى مغاور الذئاب في كهوف منجم الملح. أكمن عند مدخل المغارة، وأباغت ذئباً في العتمة، أخنقه بيدين فولاذيتين، ثم أســـتلُ خنجراً، وأطعنـــه بعنف في عنقه بضربةٍ واحدة، إلى أن تهمد حركته تماماً.أســـحله إلى أســـفل تلةٍ، وهناك أســـحب عينه اليمنى من محجرها، والتهمها دفعة واحدة، وأتمدد في فراشي شارداً في مغامرات جبّارة، فيما أخوتي يغطون في نوم متقلّب تحت ضوء مصباح الكيروســـين المعلّق على الجدار، ترتســـم ظلال أشـــباح مخيفة على الحائط. أنظر باتجاه النافذة، خشية مجيء الذئب لاستعادة عينه المفقودة، أقاومه بشراسة، ثم أستسلم لنومٍ مضطرب،

إثر يوم طويل ومرهق.

أحسد الرعاة على رباطة جأشهم وقدرتهم على الركض حفاة غير عابئين بالملمس الخشن للحجارة والأشواك، والقفز على ظهور حميرهم برشاقة الطيور. أحاول تقليد حركاتهم لكنني أفشل بامتطاء حمار مهما كان مستسلماً وأليفاً. أتفرّج بأسى على أطفال في مثل سني يركضون حفاة ويتسلقون مؤخرة شاحنة عابرة، رغم تهديدات السائق لهم، لأجد نفسي صباح يومٍ خريفي على دراجة هوائية يقودها شاب كلّفه والدي بإيصالي إلى قرية جدّي لأمي للانتساب إلى المدرسة، بناء على نصيحة وليّ صالح كان في زيارته السنوية لأبي، بعد أن أهداني حجاباً، سوف يبقى معلّقاً في رقبتي أمداً طويلاً لحمايتي من الأقدار السيئة.

في أقل من ساعة، كنت في قريةٍ أخرى، أجلسُ مرتبكاً، بين عددٍ هائلٍ من الخالات وبنات وأبناء العم، فقد كان جدّي متزوجاً من امرأتين، وكذلك شقيقه الأصغر الذي سأدعوه عمي.

في ذلك البيت الطيني، المبني فوق دكة عالية، محاطة بالأشجار، اكتشفتُ عالماً مدهشاً لم آلفه قبلاً، فقد كان البيت بغرفه الست المتقابلة، يفصل بينها صالون طويل، يشبه قصراً قديماً في طرازه المعماري الفريد، بشبابيكه الواسعة وأبجوراته، وأدراجه وخزائن غرفه

وستائره المشـــجّرة، وصالونه المفتوح على جهتي الجنوب والشمال. بيت محاط بزرائب وبســـاتين وحقول قطـــن، وأكواخ للفلاحين، وســـواقٍ للماء، تظللها أشجار توت وتين ورمّان. كان بناء المدرسة يقـــع في أملاك جدي فوق تلةٍ مرتفعة، تبعد نحو مئتي متر عن البيت بطريق ترابي متعرّج. ذهبت برفقة خالاتي إلى المدرسة، بعناية خالتي الكبرى التي لم تدخل المدرســـة قط. كان التلاميذ يفدون من قرى بعيدة، بهيئات شـــاحبة، بعضهم خُطت شـــواربه للتو، وقد دخلوا المدرسة بسن متأخرة، بناء على إحصاء مرتجل. في المساء كان المعلم يحضر إلى بيت الجد لتدريـــس خالاتي، وكنت أجلس معهن أراقب الصور والكلمات المبهمة، وأنصت إلى دروس الكبار بانتباه، فتعلمتُ الكتابة والقراءة في ثلاثة أشـــهر، وقبل نهاية العام الدراســـي الأول، نقلني المعلـــم إلى الصف الثاني الابتدائي، لأقفـــز إلى الصف الثالث مباشرة، بعد أن تبرعتُ، خلال نزهة خلوية، بقراءة قصة منشورة في كتاب الصف الخامس، استعصت على تلميذٍ كسول، أظن أنها تتعلق بالمروءة ومكارم الأخلاق.

في أيام العطل كنت أرافق جدي إلى بستان كبير يقع عند حافة النهر. لم يجرؤ أحد دخول هذا البستان بمفرده، بسبب قناعة راسخة لدى

الجميع، تؤكد على وجود أفعى ضخمة، كانت تحرسه من الغرباء، لكنها كانت تتسلل خارج البستان بمجرد حضور جدّي وسماع صوته، فهو كان يطلق نحنحة خاصة تعلن قدومه. هناك تذوّقت التفاح والرمان والخوخ من أغصان الأشجار مباشرة، لأول مرة في حياتي. في المساء كنت أتسلل إلى مجلس الجد أمام الديوان الكبير، أجلس في حضنه، أو أدور بصينية الشاي على الفلاحين الذين كانوا يتوافدون يومياً إلى الديوان، ينصتون باهتمام إلى نشرة الأخبار من الراديو، دون أن يفهموا عبارة واحدة، على الأغلب. في المطبخ المتاخم للبيت تنشغل الخالات بتحضير العشاء، وتسخين الحليب في مواقد مكشوفة، وإشعال الحطب في التنور لإعداد الخبز. لا يمرّ يوم واحد تقريباً من دون أن تُعلّق ذبيحة في الفناء الشرقي للمطبخ احتفاءً بقدوم ضيف طارئ. كان على الجد أن يعالج خصومات يومية تحرّكها سخونة دماء البدو، وخناجر تلمع فوق أحزمة من الجلد المرصّع بالخرز، لتنتهي بعد تناحر بتبويس اللحى. جدتي فضة الجاسم كانت تروي وحدتي بماء الحكايات، وسأكتشف لاحقاً أن هذه الحكايات مستلة على نحوٍ ما، من مدوّنة «ألف ليلة وليلة»، و«كليلة ودمنة»، وموروث الميثيولوجيا البدوية المرتحلة. التنين في حكايات الجدة يتحوّل إلى أفعى بسبع رؤوس تبتلع كل ما يقع

في طريقها، والغول يتحوّل إلى حنفيش يخطف النســـاء الفاتنات إلى أعماق الأرض، وحوصلة النعامة لها قدرة ســـحرية على إنتاج كيس مـــن الذهب في كل ليلة تحت رأس من أكلها، وعظام البقرة تتحول هي الأخرى إلى ذهب، والديك على هيئة شـــاب يشارك في غزو قوافل الأعداء. الأفعى وحدها كانت تطاردني في مناماتي، فأستيقظ ليلاً و قـــد أرهقني الفزع والعطش، أوقظ جدتي بصعوبة في نداءات متكـــررة، وأقول لها «أريد ماءً» تجيبني من قلـــب النعاس «نمْ..نمْ، سيأتي الغزال، حاملاً قربة ماء ويرويك». أنظرُ إلى باب الغرفة المغلق، ثم إلى النافذة المشـــقوقة قليلاً، أتوقع أن يأتي الغزال من النافذة بقفزةٍ واحدة، ثم يتوقّف فوق رأســـي، راخياً فتحة القربة ليروي عطشي. أنتظـــره.. أنتظره..أنتظره، إلى أن يأخذني النـــوم مجدداً، في أحلامٍ غامضة. اســـتيقظ في الصباح وقد فارقني العطش تماماً. أفكّر بجديّة، وأنا في الطريق إلى المدرسة: هل أتى الغزال حقاً؟

الآن تقتحم المشـــهد ثلاثة عجول سمينة يجرها رجال أشداء إلى عتبة الديـــوان الكبير صبيحة عيد الأضحى، غير عابئين بخوارها وعنادها. ســـكاكين مصقولة تنحر أعناق الثيران بحركةٍ خاطفة، فيسيل الدم ليغطي ســـاحة الديوان. تُعلّق الذبائح في خطّافات تتدلى من أعمدة خشبية متقاطعة، تُشق الأحشـــاء بضربات عمودية، فتندلق الأمعاء

الضخمـــة للعجول. كنا ننتظر حصتنا من الوليمة. لكل طفل خصية عجـــل، نقلّبها فوق نـــار الموقد إلى أن تنفجـــر، ونلتهمها بلذة لا توصف.

بعد صلاة العيد مباشـــرة، تتوافد الصواني النحاسية من المطبخ إلى الســـاحة،. يتكوّم الرجال في دوائر متلاصقة حول الصواني. يغرقون أيديهم وأفواههم بالثريد والعظام، فيســـيل الدهن من اللحى. أتسللُ إلى حضن جدّي وأحاول أن أقلّد الكبار في غمس الخبز في الحساء، على شـــكل كرة، ثم التهامها، ج لكنني أجد صعوبة في تحقيق ذلك. ينبهني جدي ألا آكل بيدي اليسرى، لكنني سأبقى أعسر إلى اليوم.

في بداية العطلة الانتصافية يصل أســـعد الفاضل على دراجة هوائية كـــي يعيدني إلى أهلي لقضاء فترة العطلة بين أخوتي. تمشّـــط خالتي شـــعري، وتحشـــو جيوبي بالســـكاكر الفاخرة من ماركة «ناشد أخوان». الســـكاكر التي سيســـتولي عليها أسعد في غفلة من عينيّ المشـــغولتين بنباح كلاب تطارد الدراجـــة ثم تبتعد وهي تهزّ ذيولها. الدراجة الهوائية تتهادى في الدرب الترابي، فيما كان أســـعد الفاضل يردّد موّالاً عن امرأة سمراء بحاجبين يشـــبهان سيفين مسلولين، وقد غادرت الديار.

(سوف أسأل أسـعد الفاضل لاحقاً عن ذلك الموّال، فيردده أمامي بحنـين: «أويلي.. أويلي.. عايل علينـا وتبعينا للغير، وشكد بكينا، بدارك بكينا، وهلينا بيهه دموع»).

سـتنعطف الدراجة إلى طريق ضيّق، في قريـة تفصل بين القريتين. تناوله المرأة السمراء رغيف خبز أخرجته للتو من التنور، وتتبادل معه ضحكات جذلى، ثم نكمل الرحلة بأغانٍ أكثر شـجناً كان يرددها أسـعد تاركاً المقود يسـير على هواه. تحتضنني أمي بقبلات طويلة أقرب إلى الشّـم. يطارد أخوتي ديكاً، سوف يذبحه سائق الدراجة بضربة واحدة من خنجـره. يركض الديك المذبوح نحو ثلاثة أمتار ثم يهمـد مرةً واحـدة. أنا ضيف لدى أهلـي، لا أجد ما أفعله في هذا البيت الموحش، مقارنة ببيت جدي بمتاهاته وأقواسـه وأدراجه وصخبـه وضيوفه. أجلس على العتبة، أراقب حركة يدي أمي وهي تعد اللبن بسواعد قوية ذهاباً وإياباً، بشكوة من جلد الماعز المدبوغ بقشـر الرمان. ما أن تنتهي من خضّ اللبن، حتى تناولني صحناً من الزبدة الطازجة، وكوباً من اللبن الرائب مع التمر.

الأرض تموج بالأعشاب والورود البرية، والدواب السارحة، قبل أن تمتزج بحقول القطن المتاخمة لنهر الخابور. أحمل وجبة الغداء إلى أسعد الذي يعمل ميكنسـيان لمضخة الماء. أجده نائماً تحت شجرة توت

ضخمة وإلى جانبه راديو ترانزيستور صغير غطى على صوته هدير المضخة. أضع الوجبة عند طرف البساط المهترئ، وأمضي إلى النهر. أجلس على صخرة، أراقب حركة الأسماك في الماء، وأحلم بأن أعبر النهر وحيداً، من دون أن أغرق.

بعد نحو صيفين أو ثلاثة، سيعلّمني أسعد السباحة، بناء على توصية من والدي. نتيجة تدريبات متواصلة، ضحى كل يوم، أقطع النهر من الضفة إلى الضفة الأخرى بمساعدة قربة منفوخة مربوطة على ظهري، سيرخي المدرّب خيوطها، وسط النهر، في لحظة مباغتة، تاركاً إياي لمصيري وشجاعتي في مواجهة المياه العميقة، أخبط الماء بذراعيّ وقدميّ، خوفاً من الغرق، إلى أن أتمكن أخيراً، من السباحة بمفردي، إلى الضفة الأخرى، بأنفاسٍ مقطوعة. يلفُّ أسعد سجائره على مهل، ويخترع لي قصصاً عن بطولاته في الحرب، أثناء خدمته العسكرية في الجبهة، وكيف أسقط طائرة إسرائيلية بحذائه العسكري، عندما نفذت ذخيرته من الرصاص، وكيف أسرّ طيّاراً إسرائيلياً، كان سرواله مبللاً بسبب الرعب. سأكتشف لاحقاً أنّه كان يقصد حرب حزيران 1967، وأن كل مارواه أمامي، مجرد أوهام جندي مهزوم في حرب خاسرة، ذلك أنه في حكاية أخرى عن الحرب، وصف لي مشهد أشلاء الجنود المبعثرة في كل مكان من الجبهة، وكيف جمع

ساعاتهم ونقودهم، وغادر خندقه ليلاً.

كنت أنتظر بصبرٍ نافذ غروب الشـــمس، كي يفي أســـعد وعده بأن يسمح لي بإطفاء محرك مضخة الماء، وذلك بإنزال عتلة تشغيل المضخة إلى الأسفل، لتتهاوى بعدها حركة دوران عجلتي المضخة على مهل.

ألهو بزراعة أشـــتال البندورة، والباذنجان، والفلفل، عند طرف ساقية، أتفقدهـــا في اليوم التالي، فلا أجد أثراً لها، فأكرر المحاولة مرةً أخرى، لكن شتلاتي ستذبل على الدوام.

على الدراجة الهوائية نفســـها، أعودُ ثانيةً، إلى مدرستي، تقبّلني أمي، ويحضنني والدي مدارياً دموعه، إلى أن نبتعد وراء التلال.

يتوقف أسعد في المحطة نفسها. يدس زجاجة عطر بيد المرأة السمراء، وأنا أتشبث بالمقود كي لا أقع عن الدراجة المائلة التي يمسك بها العاشق، وهو يداعب المرأة ويوشوشها بكلام غرام، لم أكن أفهمه تماماً.

كتب معلم الصف على الســـبورة «من قاسيون أطلُّ يا وطني/ فأرى دمشـــق تعانق السحبا» إلى آخر النشـــيد، وطلب من تلاميذ الصف الخامس، أن يـــرددوا أبيات النشـــيد وراءه، على طريقة المايســـترو والكـــورال، أما نحن تلاميذ الصف الأول فكان علينا أن نكتب البيت

الأول من النشيد عشرين مرةً في حصة الخط العربي، من دون أن نعلم أين يقع جبل قاسيون، أو أن نرى دمشق مرةً واحدة.

المعلم الذي وصل المدرسة قبل أيام على حمارٍ هزيل يحمل حقائبه وحاجياته الأخرى، أعلنَ باطمئنان، ومن دون أن يرفّ له جفن، أن هذا النشيد من تأليفه، فصفق التلاميذ لهذا الشاعر الوطني المجهول الذي لم يتردد أيضاً بأن ينسب كلمات أغنية صباح «عالبساطة البساطة»، التي شاعت حينذاك، إلى خياله الشعري.

في درس الرياضة الأول، جُرحتْ ركبتي في السباق.

كانت اللعبة تتطلب وضع منديل في منتصف المسافة بين متسابقين يقفان في مواجهة بعضهما بعضاً في الباحة الترابية، على أن يفوز في المسابقة، من يختطف المنديل أولاً ويعود إلى فريقه، من دون أن يتمكن خصمه الإمساك به.

حين جاء دوري في المبارة، ركضتُ بأقصى طاقتي باتجاه المنديل فتعثّرتُ بعد خطوات بحجرةٍ ناتئة ووقعت. جلست جانباً أتفرج على السباق، ثم هجرت الرياضة إلى الأبد.

لا مناص، ينبغي أن تُجرح ركبتي مرةً ثانية، وثالثة، فأثناء محاولتي تعلّم ركوب الدراجة الهوائية من الحجم المتوسط، أبلغني صاحب الدراجة

الذي يكبرني بسنةً واحدة، أنه لن أتعلّم القيادة بمفردي، إذا لم أقع وتُجرح ركبتي ويسيل الدم.

بدفعة واحدة من يديه، وجدتُّ نفسي انحدر في أقصى سرعة الدّراجة في وادٍ عميق بخطٍ متعرّج، قبل أن أقع أرضاً، وتُجرح ركبتي فعلاً. قلتُ لنفسي مبتهجاً، وأنا أداري الألم: ها أنذا أحصل على علامة تخوّلني ركوب الدراجة من دون خوف.

(ستُجرح ركبتي بعد سنوات، مرةً ثالثة: كنت ممدداً فوق بساط من اللباد في غرفتي ذات يوم قائظ ومضطرب، اقرأ كتاباً، حين باغتتني امرأة في فترة القيلولة، وهي تفتح الباب، وتدخل. أخبرتني بأنها تحتاج إلى علبة تبغ، وقد وجدتْ الدكان مغلقاً. أحضرتُ لها حفنة من التبغ، وورق الشام للفّ، من غرفة والدي، وبجسارة رغبة مفاجئة، ضممتها إلى صدري، ثم وقعنا معاً فوق اللباد الخشن. كانت تلك المغامرة المجنونة والمرتبكة، أول تعرّفي على مسالك اللذة الكاملة، وبعد أن لملمتْ المرأة نفسها بصمت، لفّت سيجارة وأشعلتها، ثم خرجتْ من الغرفة، من دون أن توجه لي عبارة لوم واحدة. بعد خروجها، انتبهتُ إلى جُرح في ركبتيّ من فرط الاحتكاك باللباد، فأدركتُ بأنني اجتزت امتحان نشوة الجسد بسلام).

في ذلك الربيع البعيد، وصل مخيّم الغجر، ونصبوا خيامهم عند أطراف القرية، ثم أطلقوا حميرهم في الحقول. كانت حصتي من زيارة المخيّم، سناً ذهبية من معدنٍ رخيص، مقابل وجبة من الطحين، وكدت أن أحصل على وشـــم يحمل شكل سمكة كتلك التي نقشها والدي على ســـاعده الأيســـر، لكنني تراجعت خوفاً من الألم الذي تخلّفه الإبرة في ســـاعدي الطري. كانت العجوز الغجريـــة تمزج الكحل العربي بمواد أخرى، ثم تختار الوشـــم على هواها: طلاسم وتمائم وخطوط، ستجد طريقها إلى الشفاه والأنوف والمعاصم كنوع من الزينة، فيما ينشـــغل كبير الغجر ببروفات مرتجلة على طبلٍ مهترئ، اســـتعداداً لحفلة المســـاء. يتجمع الرجال في حلقـــة أمام الخيمة بانتظار خروج الراقصة والمغنيّة. تشتعل الأجساد بالرغبة، فيحوم بعض الرجال حول الخيمة بعد انتهاء الحفلة، على أملٍ في قضاء ليلة صاخبة بين أحضان غجرية مثيرة، لكن مخيّم الغجر سيختفي في فجر اليوم التالي، تاركاً ندوباً عميقة في أفئدة عشـــاق عاشـــوا وهماً عابراً في الحب، لليلة واحدة فقط. لا يرغب أحد باســـتعادة حكاية شوّاخ المفتاح الذي عشـــق المغنيّة الغجرية زهور، وتبعهـــا من مخيم إلى آخر، مدة ثلاث ســـنوات متواصلة، إلى أن فقد آخر هكتار من أرضه، وانتهى مخبولاً يخاطب طيف زهور وكأنها موجودة أمامه فعلاً. كان شواخ المفتاح

يجلس كل يوم فوق تلةٍ تُشـــرف علـــى القرية، كما لو إنه في وردية حراســـة، منتظراً قدوم قافلة الغجر من جهة الجنوب، وما أن يرى زوبعة ســـوداء بعيدة، مقبلة من خلف الوهاد، حتى يهلل ابتهاجاً، لكنه سوف يضيع في عتمة الغبار الأصفر، وفي اليوم التالي سينتظر أن تاتي القافلة من جهة الشمال، إلى أن فقد بوصلة الجهات كلها.

الوشـــم والخزام الذهب في الأنف المثقوب من الأســـفل، والحجل المصنوع مـــن الفضة في القدمين، والهباري الحرير التي تغطي الرأس، علامـــات إضافية للجمال الأنثوي، تتباهى بها النســـاء في حفلات الأعراس. كنا نضيع في متاهة الســـيارات وصوت إطلاق الرصاص، لحظة وصول العروس.

فجأة وجدت نفسي تائهاً ومستوحشاً ومضطرباً، بعد أن اختفت خالتي الكبرى بين جموع النســـاء ليلة زفافها، لتتكفل لاحقاً خالتي الصغرى وجدتي الاهتمام بشـــؤوني بعد رحيـــل الخالة الكبرى. لم أصمد طويلاً في غياب أمي الثانية، إذ لطالما عشت في حيرة بين أمّين، واحدة بعيدة عني، أراها في الإجازات المدرســـية وعطلات الصيف، وأخرى نشـــأتُ في أحضانها. بعد مماطلات ونوبات بكاء عدت إلى قريتي الأصلية، كي أكون قريباً من خالتي الكبرى، فالتحقت بمدرسة

أخرى تبعد نحو ثلاثة كيلو مترات عن البيت، وكدت أرسب في الصف الخامس، إذ لم أعد ذلك التلميذ المتفوق على أقرانه.

في مذاكرة مادة الحساب، حصلت على ثلاث علامات من عشرة، وكان علي أن أتحمّل ألم سبع عصي على القدمين، قررها المعلم كعقوبة للتلاميذ الكسالى.

رفضتُ أن أجلس فوق كرسي الفلقة، إذ لم اعتد أن أخضع لعقوبة من هذا النوع، فطردني من المدرسة.

في صباح اليوم التالي، وبعد تحية العلم مباشرة، قرأ المعلم قرار فصلي من المدرسة، وأنهاه بعبارة حاسمة تفيد بأنني مفصول من جميع مدارس سوريا، ولن أُقبل في كل مدارس «الجمهورية العربية المتحدة».

اليوم حين أستعيد ذلك التاريخ الذي يقف عند أواخر الستينيات، استغرب من أين جاءت عبارة «الجمهورية العربية المتحدة»؟ وقد حصل الانفصال قبل سنوات، أنا المولود بعد سنة واحدة من الوحدة بين سوريا ومصر؟ لعل المعلّم ارتجل هذه العبارة المهيبة لإثارة الرعب في أذهاننا، ولاطمئنانه إلى أن أحداً لن يعترض على أخطائه المتعمّدة في التاريخ والجغرافيا!

كانت أمي تؤكد بأنني ولدت «سنة جمال»، في إشارة إلى زيارة جمال عبد الناصر إلى الجزيرة السورية في العام 1959، في أوائل

الخريف، فقد كان البدو يؤرخـــون الأحداث تبعاً لقوة وقع حادثة محلية ما، في وجدانهم، مثل «سنة الثلج». السنة التي هطل فيها الثلج بغزارة غير مسبوقة، سبعة أيام متواصلة، أو «سنة المحلْ»، أو «سنة غزو الجراد»، لكن «سنة جمال» ستبقى محفورة في الأذهان إلى اليوم مثل وشم على رسغ اليد.

على الدراجة الهوائية نفسها غادرتُ مرةً أخرى إلى مدرستي الأولى، غـــير عابئ بقرار الفصـــل، القرار الذي لم يصل حدود المدرســـة المجاورة، وكان عليّ أن اعتاد غياب خالتي الكبرى مجدداً، لالتصق بجدتي التي كانت مشـــغولة طوال النهار في زريبة الأبقار، وتجفيف الزبل على شكل أقراص فوق ســـور الزريبة، لاستخدامه لاحقاً في إشعال مدفأة الحطب في المطبخ.

كنت أتمدد في حضنها، قريباً من موقد تسخين الحليب، تفلّي رأسي من الصئبان، وتروي لي حكايات خرافية مثيرة، أو تكلّم نفسها، أو تهجو تصرفات جـــدي بانحيازه إلى زوجته الثانية، وإغراقها بالهدايا، إلى أن أغفو، لأجد نفسي في غرفة نومها بين السهاد والصحو.

ألتقطُ صوت جدي يهمهم بأدعية وآيات قرآنية، وتمائم، وهو يدخل الغرفة، في الليلة التي يخصصها لجدتي بالتناوب مع زوجته الثانية.

ضحـــى يوم عطلة، وجدت ابن عمـــي إبراهيم،الذي يكبرني قليلاً **(ليس لدي أعمام مباشرين، فقد كان والدي يتيماً لجهة الأب، وحـــين أذكر عبارة ابن عمي أو ابنة عمي، فهي على ســـبيل المجاز)**، منهمكاً في قراءة القرآن، فقد وعده والده، بأن يســـمح له بالذهاب إلى مدينة الحســـكة خلال الإجازة بصحبة نساء العائلة، في حال اختتم القرآن.

كان عمي، شـــقيق جدي، متزوجاً مـــن امرأتين أيضاً، واحدة من أصول أرمنية، من أولئك الذين انحدروا من بلاد الأناضول، إثر مجازر الأرمن مطلع الحرب العالمية الأولى، لذلك كان ابن العم أشقر بعينين خضراوين. اقترحت عليه أن أســـاعده في القراءة كي يختتم القرآن، على عجل، فاشـــترط عليّ أن أتوضـــأ أولاً. لم أكن أجيد الوضوء ولا الصلاة، لكنني اســـتعرت تمارين الوضوء، كيفما اتفق، بناءً على مشـــاهدات غامضة. حملتُ الإبريق واتجهت إلى ظلال جدار يطل على البســـتان، وفي غمرة انهماكي بالوضوء، عَبرَ عجل هائج كان يطارده الراعي فأهداني كومة زبل ســـائل، ومضى، فاضطررت إلى الاغتسال مرةً أخرى.

كنا نتناوب على قراءة السور والآيات، من دون أن نتمثّل معانيها، أو نفقه دلالاتها، بترتيل وخشـــوع مصطنعين، وفي أحيانٍ أخرى،

نقفز عن قراءة عبارة في آيـــة صعبة، وهكذا بعد ثلاثة أيام، كنا قد أنهينا المهمة، على أكمل وجه. حين شـــاهدتُ جموع النســـاء تتهيأ للذهـــاب إلى المدينة التي لم أكن قد رأيتها قبـــلاً، بدأت البكاء إلى أن وافق العم أخيراً علـــى انضمامي إلى القافلة، خصوصاً أن ذريعةً أخرى أقنعته بالموافقة، تتعلق بالتلقيح الإجباري ضد مرض الجدري الذي كانت إدارة المدرسة أوصت به. قطعنا مسافة طويلة للوصول إلى النهر، ثم ركوب السفينة إلى الضفة الأخرى، وصولاً إلى الطريق العام، بانتظار مرور حافلة قادمة من دير الزور. في بيت جدي المبني من الحجر الأبيض في ساحة جمال عبد الناصر، وسط مدينة الحسكة، أحضر خالي عشاءً للقافلة، من مطعم فلافل، يقع قبالة البيت مباشرة اسمه «مطعم الهناء». ســـأحفظ هذا الاســـم جيداً، لأنني – بصحبة أولاد عمي- ســـنذهب إليه كل مســـاء، أثناء الدراسة الإعدادية، كوجبة مقررة ولذيذة. في تلك الزيارة اشـــترى لي جدي طقماً بنياً مخططاً بالأبيض. ارتديت الجاكيت فوق الفانيلة البيضاء، لعدم وجود قميص لدي، واصطحبني خالي إلى السينما. نبهّني قبل أن يبدأ الفيلم ألا أخاف من صوت الرصاص الذي سيهطل بعد قليل من الشاشة، فقد كان الفيلم حربياً بامتياز.

في المســـتوصف الحكومي طلب مني ممرض يجلس وراء نافذة صغيرة

أن أشمّر عن ساعدي الأيمن، ثم بضربتي دبوس متقاطعتين، أنهى عملية لقاح الجدري. عُدْنا إلى القرية ليلاً، وما أن اقتربنا من البيت، رغبت في أن أسبق القافلة. ركضت في العتمة كي أفاجئ جدتي بحلتي الجديدة، لكنني وقعت في جبلة وحل إلى ركبتيّ، كان عمال قد أعدوها لتلييس سطوح الزرائب قبل قدوم المطر. لكن هذه المهمة لم تُنجز وقتها، إذ اضطر هؤلاء العمال ورجال آخرين إلى الاختفاء في شاطئ النهر والحوائج التي تتوسط الماء، إثر وصول دورية شرطة للبحث عن متهمين بمقتل أحد الغرباء، كان يدير مساحات واسعة من حقول القطن. سأدرك تفاصيل حكاية مشابهة بعد سنوات على حدوثها، وسيرويها لي نهار الفرج، ابن عم القاتل، في باحة المدرسة، عصر يوم قائظ على كأس شاي مخدّر، فيما كان «تلاميذي» يلعبون كرة القدم بصخب، أنا المعلم الوكيل في المدرسة. أمضيتُ السنة الدراسية الأخيرة في قريتي الأولى، بعد تشييد بناء طيني جديد للمدرسة مؤلف من ثلاث غرف، واحدة كانت لمبيت المعلم وللإدارة في الوقت نفسه. لم تكن المدرسة بعيدة عن بيت أهلي. كنا نذهب – نحن تلاميذ الصف السادس- عشية كل يوم إلى المدرسة لتسلية المعلم الغريب في وحدته. هذه المرة سنتعرّف على طيار حربي سابق من أهل الساحل، لديه حكايات أكثر غرائبية من تلك التي كان

يرويها أسعد الفاضل، عن بطولات تحدث في الجو حصراً، ولا أعلم صراحة، ما الـــذي أتى بهذا الطيار إلى قرية صحراوية، ليصير معلماً وحيداً لستة صفوف تتزاحم في غرفتين!

كنّا نتخيّل شكلاً ملتبساً للبحر، البحر الذي لم نشاهده مرةً واحدة إلا في خرائـــط كتاب الجغرافيا، وكان المعلم، يتنقّل في حكاياته بين الســـماء التي تخترقها الطائرات إلى أماكن بعيـــدة، والبحر بأسماكه وحيتانه وبواخره وصياديـــه، فيما كنا نتلمظ للانقضاض على علبة ســـردين، أحضرها أحد التلاميذ كوجبة عشاء للمعلم، في برنامج يومي يتوزعه التلاميذ شهرياً في ثلاث وجبات يومياً.

كنـــت عصر كل يوم، أتأبط كتابي، وابتعد نحو البريّة، أقرأ واجباتي المدرســـية بصوت عالٍ،غارقاً في أناشـــيد حماسية، ومعارك خاضها الأجداد ببسالة على حدّ السيف، في صحارى ووهاد ورمال مترعة بالدماء. أدخلُ قلاعاً، وأتجوّل بين جدرانها ومتاهاتها السريّة. أتوقف مليّاً أمام بنود معاهدات بين قبائل متطاحنة، وتواريخ قوافل حطت أخيراً عند تخوم المدن. أرسم على التراب وأنا أتذوّق طعم الخرنوب البرّي، مســـار قبيلتي التي انحدرت ذات يومٍ بعيـــد من الحجاز إلى العراق، لتســـتقر أخيراً على كتف نهر الخابور. لم يكن هؤلاء الرعاة على علاقة وطيدة بالزراعة، لكن سنوات الجفاف المتلاحقة، أجبرتهم

على نصف استقرار، ففي الربيع كانوا يتبعون مناطق الكلأ، وغدران الماء، وأســـراب القطا، ليعودوا إلى ديارهم مع مطلع الصيف. كان والدي قد اســـتبدل قطيع الأغنام الذي ورثه عن أبيه، مقابل وعد بمســـاحة مئة هكتار تقتطع من أرض أبناء العم، لكن أبناء عمومته، باعـــوا القطيع، و لم يفوا بوعدهم أبداً، ليكتفي مرغماً بقطعة أرض مستأجرة، هي في الأصل حصة أمي من ميراثها المؤجل، وكان عليه أن يبـــني بيتاً طينياً بمحاذاة ملكيتـــه الجديدة. تروي أمي التي كانت تعمل في حقول الآخرين، إلى وقت الغروب، إنني عفّتُ صدرها بعد ستة أشـــهر من ولادتي، في فطام فجائي، لعله كان احتجاجاً رمزيّاً على غيابها الطويل.

هل عطشـــي إلى حليب الأم هو من أورثني نزقاً دائماً، وســـخطاً، وعزلةً اختيارية؟

2

كان على المعلم، في خمسينيات القرن العشرين، أن يلتحق بالمخيّم الربيعي للبدو، فُيخصص له بيت من الشَعر لتدريس التلاميذ، ثم يعود معهم إلى القرية مجدداً، بانتهاء فصل الربيع، وكان على من يؤدي الخدمة العسكرية، أن يبحث عن أهله في البوادي، خلال إجازاته القصيرة، بالاتكاء على الحدس وحده، وقد تنتهي الإجازة دون أن يلتقيهم، فيضطر إلى العودة خائباً، من حيث أتى، بحقيبة من التنك، وعتابا مجروحة، سيبددها في عراء الدروب الموحشة.

كأن هذا الحماد منذور للتيه والفجيعة والصمت.

عصر يومٍ مغبر، وصل طه عبد الرحمن إلى القرية، بعد أن عيّنته وزارة

المعارف معلماً في قرية لم يسمع بها قبلاً، وليس لها وجود ملموس على الخريطة. قرية تتاخم نهراً من جهة، وصحراء مفتوحة إلى حدود البلاد الشرقية من الجهة الثانية. قرية تبعد ثلاث وعشرين ساعة عن العاصمة، وفي فصل الشتاء نحو يوم ونصف بسبب الطرق الموحلة، وندرة المواصلات، ما يتطلب الوصول إليها ركوب أكثر من حافلة ودابة وسفينة، والمرور بخمس مدن، وصحارى، وأنهار، وسهول، وبيوت طينية متناثرة، لكنه، خلافاً للصدمة الأولى التي انتابته، وهو يضع حقيبته، أمام غرفتين طينيتين منعزلتين عن بيوت القرية، ووجوه بدوية شاحبة، وأطفال حفاة، وكلاب تحرس الموت البطيء بالعواء، أحسّ في الأيام التالية لمجيئه قرية الرشيدية بألفة غير مسبوقة بين هؤلاء البدو الذين توافدوا إلى المدرسة للفرجة على المعلّم الشامي. كانوا ينظرون إليه بريبة وخشية وتردد، وهو يخرج حاجياته من حقيبته الضخمة، ويغسل وجهه بالصابون، مبدين دهشتهم من هذه المادة العجائبية ذات الرغوة، في الوقت الذي كان بعضهم يدهن لحيته بحساء الثريد، كي لا تفارقه رائحة هذه الذكرى، أطول فترةٍ ممكنة. لم يتردد المعلّم الشامي في مرافقة الأهالي إلى البادية، خلال فصل الربيع، جرياً على عادتهم كبدو نصف رحّل، خشية أن يفشل في إتمام العام الدراسي، بعد أن فرغت القرية من سكانها. هناك سبب

آخر لتعلّق طه عبد الرحمن بهذا المكان، فهو منذ أن لمح هدلة الحمود عند شاطئ النهر، ضحى يوم عطلة، انتابه إحساس غريب، لم يألفه قبلاً. لعله تعلّق بصوتها العذب أولاً، إذ كان يتناهى إليه من بعيد، في أغنية لم يفهم معانيها، قبل أن تخرج من الشاطئ، وهي تحمل كومة من أغصان الطرفاء. توقفت هدلة الحمود لدقائق، ريثما ترتّب الأغصان، وتربطها بحبل على شكل حزمة، ثم تضعها على ظهرها. فكّر المعلم بأن يساعدها في حمل حزمة الحطب، لكنه تردّد خشية أن يكون تصرفه غير مقبول في العرف البدوي، إذ حذّره جاره في رحلة الباص، وهو ضابط تمّ نقله تعسفياً إلى منفى الجزيرة، من تصرفات تبدو بالنسبة إليه عادية، قد تؤدي إلى القتل لدى هؤلاء البدو.

نظرتْ هدلة بإمعان إلى المعلم الذي كان يجلس فوق صخرة تطل على الشاطئ، وقد توقف عن قراءة الكتاب الذي بين يديه، وشخص بنظره إليها، ثم أكملت طريقها بصمت.

كان طه عبد الرحمن يراقب حزمة الأشجار المتحركة وهي تبتعد، قبل أن يقرر اللحاق بها، تاركاً مسافة واضحة بينهما، إلى أن اهتدى إلى بيتها. منذ تلك اللحظة العاصفة، انتابته حمّى الحب، كما لو أنه نسخة أخرى من شخصية العاشق في كتاب جبران خليل جبران «الأجنحة المتكسّرة». الكتاب الذي كان يتأبطه في

ذلك اليوم المجنون: (**كانت حياتي خالية مقفرة باردة شـــبيهة بســـبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور، فســـلمى كرامة هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب، هي التي أفهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشـــباح. حـــواء الأولى أخرجت آدم من الفردوس بإرادتها وانقياده، أما سلمى فأدخلتني إلى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادي، ولكن ما أصاب الإنسان الأول قد أصابني، والســـيف الناري الذي طـــرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني**).

تلك الليلة، عاش طه عبد الرحمن اضطراباً عنيفاً، وأرقاً لم يألفه قبلاً. حاول أن يكتب في دفتر يومياته، ما يُشـــبه تلك الحمّى، لكنه فشل أكثر من مرة، في وصف تلك الأحاســـيس التي داهمته، خصوصاً أنه لا يعرف اسم من يكتب عنها. بنفخة واحدة، أطفأ مصباح الكاز، ثم اختلطت تأوهاته المحمومة بنباح كلاب بعيدة.

(**روى لي المعلم الشـــامي، بعد تردد، أحاسيسه القديمة هذه، أثناء إحدى زيارته لي، في دمشـــق، إذ علم بوجود أحد أبناء تلاميذه القدامى في العاصمة، لكنه لم يرغب بكشف تفاصيل أكثر عن مصير هذه العلاقة، واكتفى بحسرة طويلة**).

هكذا امتطى حماراً، وســـار في مؤخرة الظّعن، من دون أن يتخلّى عن بزته السوداء وربطة عنقه، وقد ثبّت أمامه لوحاً خشبياً مدهوناً بالأسود، فيما تكفّل التلاميذ بحمل كرسي من الخيزران، وكراريس، وكتب، وعلبة من أصابع الطبشـــور الأبيض. الطبشور الذي كانوا يمضغونه خفية عن المعلّم لتغيير طعم أفواههم الجافة من العطش وطول المسافة، لتختلط في تلك البريّة أصوات التلاميذ بثغاء الأغنام، وأنين المرضى، والمحزونيين.

في البريّة، وجد طه عبد الرحمن نفسه، ينخرط في حياة البداوة بأقصى طاقته وشغفه في اختبار حياة جديدة. حياة كما لو أنها حلم غريب، فالشـــاب الذي كان يشعر بالفزع من نباح كلب، هاهو يتوغل ليلاً في مسالك الصحراء، يحرسه قمر يكاد أن يلمسه بيديه، وتجفل أمامه أرنب، وتتســـلل أفعى على بعد خطوات منه، دون أن تأذيه، كما كان يتوقّع. انتبه مرةً إلى عقرب تتسلل إلى مجلس الرجال في العراء، فصرخ محذّراً، لكن أحد الرجال رفع حذاءه وســـحق العقرب، ثم أكمل حديثه، وكأن شـــيئاً لم يحدث. هذه الحادثة علّمته ألا يخاف من هوام الصحراء، شـــرط أن يكون حـــذراً، وأن ينتبه في التوقيت المناسب.

كان طيف هدلة الحمـــود يرافقه في تلك الليالي الربيعية المقمرة، من

دون أن يجرؤ على كشـــف مشاعره أمام أحد، خشية افتضاح أمره، لكن الحكاية ستتسرب على مراحل، حين ذكرت هدلة الحمود اسم طه في متن أغنية كانت ترددها، في مراح الأغنام.

هل انتهت الحكاية هنا؟ الأرجح أن طه عبد الرحمن دفن مشاعره في صدره إلى الأبد، واكتفى بذلك الوميض السحري الذي يشبه زخة مطـــر عابرة، لكنه لم يتوقف عن زيارة القرية إلى آخر يوم في حياته، وكأنه واحد من أهلها.

كان يوسف البرّاك، شـــقيق والدي في الروح، أحد تلاميذ طه عبد الرحمن، وقد تعلّم على يديه أســـرار الحروف، وروعة الخط العربي، وكتابة يومياته في مفكرة صغيرة، يســـتبدلها مطلع كل عام. لم تكن يوميات بالمعنى المتداول، بقدر ما كانت تسجيلاً لديونه، والحاجيات التي ينبغي إحضارها من المدينـــة، وقوائم بأثمان الخراف التي باعها، والدّيكة التي اشـــتراها، وكلفة محروقات مضخة الماء، ومواعيد بذار القمـــح، والكمية المطلوبة للتخزين من أجل مؤونة الشـــتاء المقبل، وملاحظات تتعلق بقياس أقدام أبنائه لشراء أحذية جديدة لهم، فهو كان يقدّر نمرة القدم بالشـــبر، إلى أسمـــاء أدوية وأطباء اختصاصيين بأمـــراض المعدة، للعلاج من قرحة مزمنة كانـــت تنتابه في الصيف

عادةً، وحساب عمّال حراثة القطن، وأثمان أقمشة كان يهديها سرّاً لعشـــيقات في قرى بعيدة، من دون أن يحقق رغبته في زوجة ثالثة، فبعد أن اكتشـــف أن وسادته محشوة بعظام هدهد، وخرز، وودع، كتمائم ســـحرية، وضعتها زوجته الثانية ســـرّاً، كي لا يتخلى عن حبها، طلّقها على الفور، وانتظر ثلاثة أشـــهر، ريثما تضع مولودها الأول، وأرسل من يحضر الطفلة لتتقاسم حليب ثديي زوجته الأولى مع طفلتها التي ولدت في الفترة نفســـها تقريباً، وسجّل الطفلتين في دفتر العائلة بوصفهما توأماً، لكن لوثة العشـــق لم تفارق روحه يوماً واحـــداً، متنقّلاً على دراجته الناريّة، في أمســـيات حزينة، بحثاً عن امرأة تخمد جذوة أشواقه، وما أن يقع في غرام إحداهن، حتى يغرق عائلتها بالهدايا، إلى درجة أن أحضر مرةً، مئة وخمســـين ذراعاً من القماش الأسود، لنساء عائلة منكوبة بحادثة وفاة، ليعلنّ حداداً لائقاً على روح جدهنّ العمياء، من أجل عيني امرأة تنتمي إلى هذه العائلة البائســـة، لكن محبوبته تزوجت من رجل آخر، بعد سنة ونصف من المكابدات المضنية. كان يوســـف يدفن أحزانه في بئر عميقة، بمجرد أن يجد امرأة أخرى تستهويه، ليبدأ جولة أخرى من العشق بزيارات يومية لأحد بيوت القرية، تتكشـــف لاحقاً عـــن رغبته في الزواج من إحدى نســـاء هذه العائلة، لتنتهي بالفشل كسابقاتها، وإذا بنحو

خمس نســـاء، كان يوسف البرّاك يعشقهنّ بالتتالي، يقطنّ بيوتاً على مرمى حجر من عيني هذا العاشق الخائب. العاشق الذي كان يضمّد جراحه بالسفر إلى قرى أبعد، بما فيها خيم البدو الرحّل الذين كانوا يخيمون عند تخوم القرى مع مواشـــيهم بانتهاء موسم حصاد القمح، لكـــن هذه القصص العابرة كانت تخبو مـــع انطفاء آخر موقد نار يغادره هؤلاء البدو، إلى أمكنة أخرى.

بمساعدة دراجته الناريّة ونظارة شمسيّة، وسيجارة لف مشتعلة على الدوام، وواقية من البلاستيك المقوى لحمايته من هواء الشتاء القارس، وصل يوسف إلى قرى بعيدة، في قصص حبّ ملتبسة، تدوم سنوات من الأســـى والانتظار، والنهايات المفجعة، ما جعل زوجته الأولى، درءاً لفضائح - لا تليق بمقامه - تتعلق بإغواء فلاحات كنّ يتسللنّ إلى غرفته في وضح الظهيرة، تبحث له عن عروس مناسبة، لكن أحداً لم يغامر بالموافقة على تزويج ابنته من رجل لديه حفيدات متزوجات، وزوجة تنتمي إلى عشيرة ذات شأن. هذه الخيبات المتلاحقة لم تصبه باليـــأس أبداً، وإن زادته نزقاً، فقد كان يخترع ذرائع واهية للغضب واللعنات، وهو يغادر المنزل راكباً دراجته النارية إلى مكانٍ مجهول، لكن أحد أبنائه لمحه عصر يومٍ ربيعي، يعبر طريق الإسفلت المحاذي لبيوت القرية، متجهاً إلى الشـــمال، وقد وضع دزينة من الكراسي

البلاســـتيكية الملوّنة، فوق المقعد الخلفي للدراجة، مثبّتة بحبالٍ متينة، لتســـتقر أخيراً، أمام عتبة بيت طيني متهالـــك في قرية عند حدود البريّة، لفلاح كان قد اســـتأجر أرضاً منه، ترويها بئر ارتوازية، لديه ثلاث فتيات شابات، لاشـــك أن يوسف العاشق، قد وقع في غرام إحداهـــنّ، وبدأ خطته التقليدية في الإغـــواء، عن طريق هدايا تخصّ العائلة بأكملها، تبدأ بتليين موقف الأم أولاً، ثم الأشقاء الشرسين، ثم الأب، إذ لم يخـــل خرج درّاجته من حاجيات ثمينة، وأكياس فاكهة، وسكّر، وشاي، ومكسّرات، وتبغ لاذقاني من النوع الفاخر، كانت بالنسبة لعائلة فقيرة، لا تتمتع بأدنى متطلبات العيش، بمثابة معجزات صغيرة.

في الأيام التي لا يذهب خلالها إلى مواعيده الغامضة، يجلس يوســـف البرّاك في الفناء الشـــرقي لغرفته، يفـــرم أوراق التبغ اللاذقاني الذي كان يحضره إليه، مدير الناحية، من قريته الســـاحلية، ويملأ علبة تبغه المعدنيـــة. العلبة التي تدور على الدوام بـــين أيدي ضيوفه، متلذذين بلفافات تبغ ذات مذاق حرّيف، وكؤوس شاي مخدّر، وأحاديث عن مطـــر، يأملون أن تحمله غيومُ بعيدة، لكنهم يفاجأون بزوبعة عجاج تنسف كل توقعاتهم بمواسم قمح وفيرة.

هكذا توزّع أبناء يوسف البرّاك غرف البيت، وحين ضاق بهم المكان، أضافوا غرفاً طينية أخرى، ملحقة بالبيت الكبير الذي صار أشبه بمتاهة تخترقها شبابيك وأبواب محاطة بإطارات من الجص والكلس الأبيض، ورسومات زخرفية لحيوانات أسطورية تزيّن الجدران الداخلية، رغم اعتراض الأب. الأب الذي كان على قناعة تامة بأن أرواحاً شريرة تسكن في مكانٍ ما، من جنبات البيت، بسبب خرزة زرقاء يعتقد أن زوجته الأولى، قد دفنتها تحت أحد الجدران، كي لا يتزوج مرةً أخرى. حين فقد الأمل بأن تعترف زوجته بمكان دفن الخرزة الزرقاء، واعتراض الأبناء على هدم أساس البيت القديم، وبناء بيوتٍ جديدة بمحاذاة الطريق العام، بدأ هو نفسه بالتفتيش عن تلك الخرزة الملعونة التي لم توجد يوماً، من دون أن يعلن خطته لأحد، كأن يفتح شباكاً في غرفته، ويردم آخر، أو أن يبدّل مكان الباب، ويديره إلى جهة القبلة، أو أن يعيد ترميم أرضية غرفته بالحصى والإسمنت، أو أن يجدد السقف، مفتّشاً أكوام القش، لكن هذه المحاولات فشلت كلها في العثور على الخرزة الوهمية، كما لم تنجح خططه في الزواج مرةً أخرى، فازدادت عزلته، وغيابه عن عائلته، وبات كائناً لا مرئياً، إذ بالكاد يراه أحد، عدا لحظة خروجه من الغرفة، لامتطاء دراجته الناريّة، والذهاب إلى مكانٍ مجهول.

كانت إحدى حفيداته صلته الوحيـــدة بالعائلة. الحفيدة التي كانت تحمل إلى غرفته صينية الطعام ثلاث مرات يومياً، وتمسّد أصابع قدميه في فتـــرة القيلولة للتخفيف من آلام النقـــرس، ثم تكنس غرفته أثناء غيابه، وتعيد ترتيب حاجياته، من دون أن تسمح لخالاتها الفضوليات الدخول إلى الغرفة. لا أحد مـــن أفراد العائلة يعلم بدقة، ماذا يفعل الأب طوال فترة ما بعد الظهر إلى غياب الشمس داخل غرفته. كانوا يلمحونه خارجاً من الغرفة، وهو يحمل إبريق الوضوء نحو الخلاء، ثم يختفي إلى ما بعد فترة الغروب. يسمعون أخباره وخططه في الزواج من عتبات الآخرين، لكن الأيام والأشـــهر والسنوات، ستعبر بطعم الحنظل، من دون أن تهبّ نســـمة هواء واحدة تكســـر هذه العزلة الأبدية التي اختارها يوسف البرّاك مرغماً، وباتت جزءاً من سلوكه اليومي. ســـنواته التي تقترب من الســـبعين، لم تؤثر لحظةً واحدة في عرقلة مشاريعه الغرامية، فهو لم يتخلَ عن صباغة شاربيه بلون أسود فاحـــم، وارتداء جلابية بيضاء نظيفة على الدوام، تفوح منها رائحة عطر القرنفل، وغليون من خشـــب الجوز، أحضره من أحد متاجر حلب، في زيارة قديمة، يســـتعمله في أوقات محددة. كان يردد بأسى أن حياته تشبه عاصفة من العجاج، لا تحمل في هبوبها سوى الخراب والدمار والتهلكة.

3

العجاج قدر أبدي يلوّن الحياة بالأصفر الداكن. الأصفر الذي يهبّ من جهة الغرب مثل كائن أسطوري يبتلع طمأنينة الجهات الأخرى، فتتعطّل الحواس، ريثما تتكشـــف السماء عن زرقةٍ داكنة، وزخات مطر تُخمد حركة الرمال، لتبدأ صيحات استغاثة عن أطفال مفقودين وحيوانات ضالة، وكؤوس شاي تطفئ لهيب الأسى الإلهي.

تحطُّ أمامي الآن أســـراب قطا على حافة غدير ماء، فيما يكمن رجال وراء أكمة قريبة ببنادق صيد. تصطفق أصوات الأجنحة عالياً، وتتخبط الطيور الجريحـــة، من دون أن تتمكن من الطيران، فنهبّ نحن الأطفال إلى جمعها، وبتر أعناقها على الفور، ثم جمعها في كيس من الخيش.

في شتاء نادر سيهطل الثلج طوال الليل، ليصل في الصباح إلى علو ثلاثة أرباع المتر. من الشباك المطلّ على باحة البيت، كنت أراقب سرباً من الزرازير، تحط فوق الثلج كبقع سوداء فوق البياض الناصع، بفخاخ فاشلة. أتسلل خارجاً، لألتقط كومة من البياض، ألتهمه بشهيّة. في الحظيرة المجاورة كان أبي يرمم السور الطيني المهدد بالانهيار. تنام أمي في المطبخ المحاذي للحظيرة، على ضوء سراج شحيح، تتفقد النعاج ليلاً، كي تساعد نعجةً ما، بولادةٍ عسيرة، في حين لا تجد هي من يساعدها - لحظة مخاضها- بمولود جديد. كانت تضع سكيناً مشحوذة إلى جانبها، لتقطع بها الحبل السري للمولود. نستيقظ صباحاً على صوت بكاء شقيق جديد، سوف يختار اسمه الملّا سراج العمري: يحضر كتاباً يضم أسماء الأنبياء، ويفتح صفحةً لا على التعيين، ثم ينطق بالاسم الذي اختاره للمولود. الملّا سراج هو من اختار اسمي، مقابل ديك رومي، حملته أمي إلى بيته عرفاناً بجميله، بعد أسبوع على ولادتي، لكنه سيظل يمازحني لاحقاً بأن أجلب له شفرات حلاقة من ماركة «ناسيت» الشهيرة. كان الملّا يمتطي حماره ظهر كل يوم إلى منجم الملح، بصحبة راديو ترانزيستور صغير، يثبّته على عنق الحمار، ومرآة صغيرة، وآلة حلاقة، يشذّب بها ذقنه على مهل، من دون أن يستعمل معجون الحلاقة مرةً

واحدة. في الطريق الطويل إلى المنجم، ينصت إلى أخبار إذاعة لندن، بانتباه محلل سياسي. كان حلمي أن أمتلك مذياعاً صغيراً كالذي لدى الملّا، إلى أن أحضر والدي ذات يوم مذياعاً بثلاث بطاريات من الحجم المتوسط، وغطاء من القماش المزخرف. حين تأمل حمود العربيد الجهاز السحري الذي يبث أغانيَ وأخباراً وتمثيليات، ازداد يقينه أن هذا الصندوق تحركه العفاريت، وعلّق على هذا الاختراع قائلاً «لقد تفوقوا على كل شيء، عدا عزرائيل».

من هذا الراديو سمعت أول مرة صوت أم كلثوم.

كانت إذاعة دمشق تبث في الواحدة والنصف من بعد ظهر كل يوم أغنية لأم كلثوم تستمر حتى موعد نشرة أخبار الثانية والربع. يضع والدي الراديو في شباك غرفته المفتوح على مصراعيه، فيصل الصوت إلى الغرف المجاورة. حين يسافر والدي إلى مكانٍ بعيد، يترك لي الراديو خارج غرفته، فألتصق به ساعات طويلة، متجوّلاً بين المحطات: «هنا دمشق»، «هنا القاهرة»، «هنا لندن»، «صوت أمريكا»، «هنا إذاعة مونت كارلو»، وكان التقاط أغنية لسميرة توفيق حدثاً فريداً في تلك الصحراء المضجرة. كان لدينا قناعة راسخة بأن سميرة توفيق من أصول بدوية، بدليل الشامة التي تزيّن

خدهـــا، والكحل العربي الذي يحيط برمـــوش عينيها، وهذا ما عزّز مكانتها في الأفئدة. في مساءات الصيف، يتمدد والدي على دكة في الفناء الغربي للبيت، وبعد أن ينهي صلاة المغرب، يدير محطة الراديو على إذاعة بغداد، للاستماع إلى برنامج «ما يطلبه أهل البادية».

في تلك المســـاءات البعيـــدة، تعرّفتُ على أصوات داخل حســـن، وحضيري أبو عزيز، ووحيدة خليل، أما سميرة توفيق فهي من كانت تصنع البهجة على أصولها، و لم يكن مســـتغرباً أن نجد صورتها على خلفية المرايا البلاســـتيكية التي كان يحضرها باعة متجوّلون بوصفها أيقونة بدوية مثيرة. بخمســـة قروش كنا نحصل على ســـكاكر ملوّنة من هؤلاء الباعة المتجوّلـــين، ففي الخرج الذي ينوء تحت ثقله حمار بائس، كان للحياة بهجة أخرى، على شكل مناديل مقصّبة، وأساور بلاستيكية، وكحل عربي، وزجاجات عطر بماركات مشهورة.

كان عطر «باريس» بزجاجته الصغيرة على شـــكل مجسّـــم لبرج إيفل، هديةً تطيح بأجمل النســـاء. لاحقاً سأرسل أكثر من زجاجة عطـــر مع صديقي إلى جارتنا التي وصلت مع أهلها من قرية أخرى، لأكتشـــف أنه أقام معها علاقة سريّة على حسابي، وسيتعاقب على هذه الجارة عشّـــاق كثيرون، وراء مخزن الحطب، في مغامرات ليلية تطفئ أشواقهم ورغباتهم وأحزانهم.

(رحلت نوفة العبود في الخامسة والأربعين من عمرها، بسرطان الحنجرة).

أقنعنا محمد العطوان الذي يكبرنا سنّاً، ويقيم بكنف مزارع من مدينة حماه، أن أحد الباعة المتجوّلين جاسوس إسرائيلي، فلحقنا بالبائع إلى خارج القرية، مطالبين إياه إثبات هويته، لكنه زمجربوجوهنا غاضباً، و طردنا بعصاه، وابتعد مسرعاً وراء حماره إلى قريةٍ أخرى. هذا التصرّف أكد لنا أنّهُ إسرائيلي حقاً، بحيثيات أوردها محمد العطوان بتسلسل منطقي، ونحن نجلس على حافة كهف النهر، ذلك أن البائع كان ينصت إلى مذياع مزوّد بأنتيل طويل، وهذا دليل مؤكد بأنه يرسل إشارات سريّة إلى إسرائيل.

سنصدّقه بهزّات من رؤوسنا، وهو يزودنا بمعلومات أخرى عمّا يجري في العالم، وبناءً على هذه الحجج، لم نستغرب قوله بأن مؤشر المذياع الضخم الذي يمتلكه أبو صلاح، كان يدور مثل مروحة، أثناء بث خبر رحيل جمال عبد الناصر، من فرط هول الفاجعة.

لن أنسى ذلك المشهد من أواخر أيلول خريف 1970: كان والدي يقوم بتصليح عجلة الدراجة الهوائية المعطوبة، وقد وضع المذياع إلى جانبه. كان المذيع بصوته المؤثر، ينقل على الهواء مباشرة، وقائع

رحيل جمال عبـــد الناصر. انتبهتُ فجـــأة إلى والدي وهو ينتحب بمرارة.

بعد أيام كانت صورة جمال عبد الناصر المســـتلة من يافطة إحدى المظاهرات، معلّقة في صدر غرفة الضيوف.

بصعوبة قذف بي أحدهم إلى مؤخرة الشاحنة التي توقفت في أطراف القرية لجلب قرويين للمشـــاركة في مظاهرة في مدينة الحســـكة. في ساحة الســـبع بحرات أفرغت الشاحنة حمولتها من القرويين. وقفتُ على الرصيف أتفرّج على الحشـــود، وأقرأ الشعارات المتضاربة التي تطالب بالوحدة العربية. كان أحدهم يهتف بكامل حنجرته «بعثية.. بعثية»، فيردد الحشد وراءه «بعثية.. بعثية»، ثم بحماسة أكبر «شباك البعث مفتوح.. طلت منه الحرية»، فيهتف أحدهم بما يشـــبه الزعيق «أمة عربية واحدة»، قبل أن يقتحم الســـاحة حشـــد آخر بشعار مختلـــف «ناصر..ناصر..كلنا بنحبك ناصـــر» لكن القرويين كانوا يرددون الشعارين معاً حســـب ما تلفظهم موجة الحشود المنحدرة نحو شارع فلســـطين، وفجأة يحدث عراك بين التظاهرتين، فتتحطم عصي اللافتات فوق رؤوس الخصوم، إلى أن تفرّق دوريات الشرطة الحشـــود بالهراوات. الشـــيوعيون وحدهم، كانوا خارج المنافسة، وكان أقلّ وصف لشـــيوعي: إنه لا يتورع عن إقامة علاقة محرّمة مع

شقيقته، أو إنه يأكل البراز كالحلاوة!

مظاهرات، وأحزاب، ولافتات، وشعارات، ومحاولات انقلاب فاشلة، انتهت اليوم إلى عبارة واحدة هي: «مسيرة شعبية حاشدة».

4

في تلك القرى البائسة والمنسيّة والمحزونة إلى الأبد، كانت الأرض لا تزال تدور على قرني ثور، بضجر وحكمة إلهية تصنع الأقدار على هواها، في لوحٍ مرصود، إلى أن أتى مدرس الجغرافيا في إعدادية الثورة، ووضع مجسماً للكرة الأرضية فوق الطاولة، وأداره بأصبع حاذقة، بين القارات الخمس، مبيناً حجم اليابسة الضئيل نسبة إلى حجم المياه، وأن الكرة الأرضية تدور حول الشمس. هكذا سأغرق في مياهٍ أخرى منذ اللحظة التي قفزتُ بها إلى السفينة لعبور نهر الخابور إلى الضفة الثانية، بصحبة أصدقاء يغادرون الأهل لأول مرة في حياتهم. بأجساد هزيلة، ونقود ضئيلة، واضطراب الفراق، قطعنا

المسافة الطويلة من النهر إلى الطريق العام، لنصعد بعد نحو ساعة من الانتظار، في باص «الهوب هوب». الباص الذي يغص بركّاب متجهين إلى مدينة الحسكة بصحبة دوابهم ودجاجهم وسعالهم ولفائف تبغهم المشتعلة طوال المسافة. ساعة أخرى من الوقوف في ممر الباص، إلى أن لفظتنا «غزالة الصحراء» عند مدخل المدينة، قبل أن نتجه إلى بيت العم في ضاحية «غويران» ببيوتها المتراصة وشوارعها المتربة. بيت بثلاث غرف متلاصقة، داخل حوش واسع تتوسطه عريشة عنب. ابن عمي الأكبر، وزوج خالتي الكبرى، الذي كان يؤدي الخدمة الإلزامية في محطة محروقات للجيش، ألقى علينا، فور وصولنا، محاضرة تعبوية بفصحى ركيكة عن قيمة العلم وأهمية الانضباط، وخصوصية العيش في مدينة تحتشد بالغرباء واللصوص والمحتالين، هو الذي لم يتمكن من الحصول على شهادة الإعدادية خلال ثلاث دورات متتالية، ثم غادر المترل إلى مناوبته الليلة في محطة المحروقات.

كان والدي قد أحضر قبل أسبوع من مجيئي إلى هذا البيت، سريراً عسكرياً خاصاً بي، فيما كان أولاد العم يفترشون أرض الغرفة. على إفريز النافذة المجاورة للسرير وضعت كتبي ودفاتري، ومجلاتي. كنت أقتني كل أسبوع مجلة «الموعد»، ولاحقاً مجلة «سمر» للقصص

المصورة، وأحياناً مجلـــة «الرياضة»، إذ كنت مفتوناً بالملاكم محمد علـــي كلاي في أوج صعوده، قبل أن يطيحه جيمس فريزر بالضربة القاضية، في مباراة مؤلمة.

نقودي الضئيلة، لم تؤثر على عاداتي في شـــراء المجلات الأسبوعية، أو الكتب.

في مغامرة باســـلة، وضعتُ خلالها حدّاً للتردد والخجل، اقتحمتُ مكتبة «الحرية»، أشـــهر مكتبات المدينـــة، وابتعت كتاب «حياتنا الجنسية» لصبري القباني صاحب مجلة «طبيبك». الكتاب الذي كان يتصدّر واجهة المكتبة، إلى جانب «بؤساء» فيكتور هيغو، و«خمّارة القط الأســـود» لنجيب محفوظ. صديقي حسين جدعان وأنا، قلّبنا صفحات الكتاب بلهفة إلى أن توقفنا بذهول عند صورة تشـــريحية للفرج. قال حسين الذي يكبرني بعامين «أليس من المحزن، أن نتفرّج على هذه الصور، ولا نعرف ســـوى مؤخرات الحمير؟». حكى لي بشـــغف علاقته بالحمير، وكيف كان يتسلل إلى حظائر الجيران ليلاً ويقضي حاجاته الجنســـية مع أتان ولدت للتو، وكأنها فتاة عذراء. كنت أنصت إليه بحياء ودهشـــة وبلاهة، إذ بالكاد اكتشفت دهاليز العادة السرية بمســـاعدة واحد من أبناء العم. أحسّ حسين بالفخر وهو يروي مغامراته الجنســـية، وكيف سمع شـــهقات جارته صباح

زوجة العتّال، من شباك غرفته المستأجرة، في ذلك البيت الذي يحتشد بالغربـــاء. قررت أن أزوره في يوم العطلـــة المقبل للتعرّف على هذه الجارة الشهوانية التي تخرج إلى المطبخ بثوب نوم شفّاف يبرز مفاتنها، حسب تعبيره. هكذا توزعتنا أزقة «غويران» وحواريها المتربة، من شـــارع السجن إلى سوق الماشية وانتهاءً بالمقبرة. المقبرة التي ستزيلها البلدية لتوسيع الحي الشرقي. كان على أهل الموتى أن يجمعوا عظام موتاهـــم في أكياس، ويذهبوا بها إلى المقـــبرة الجديدة خارج الحي. ســـوف تتكشف هذه الضاحية العشوائية عن أقوام، وإثنيات مختلفة، وســـنختلط بها في باحة المدرسة بحذر. في الفرصة كان أحد الزعران الديريين يوقفنا على جدار الباحة كالأصنام، ثم يلقي أوامر عسكرية بالانصراف إفرادياً، أو أن ينتظرنا خارج سور المدرسة ليفرض علينا ضرائب مالية، كنا ندفعها بصمـــت. صرنا نخترع طرقاً التفافية في الوصول إلى المدرســـة، أو ركوب بـــاص النقل الداخلي كي نتلافى الصدام مع هذا الفتى الشرس ابن دلّال الأغنام، إلى أن تجرأ أحد أبناء العم مرةً، وباغته بصفعه أدارته جانباً، لتنشأ بيننا، إثر هذه المعركة، صداقة حميمة، إذ صار سمير العقلة، يتردد إلى بيتنا، لتعليمنا دروســـاً في الجمباز والمصارعة الحرّة، كما نصحنا باقتناء مطاوٍ خاصة لمواجهة أعداء محتملين. كل هذه الخدمات الجليلة مقابل حصوله كل خميس

على تذكرة سينما بالمجان.

في «سينما دمشق»، و«سينما القاهرة»، و«سينما فؤاد»، السينمات الثلاث في المدينة، اكتشفتُ سحر أفلام الستينيات والسبعينيات. كان وصول فيلم كاوبوي لجوليانو جيما، أو تشارلز برونسون، أو جون واين، حدثاً استثنائياً، يستحق المغامرة. أن تدفع ستين قرشاً ثمن تذكرة دخول إلى الصالة، أهم من ثمن علبة سردين سوف تتناولها على الغداء. قبل الدخول إلى الصالة، كان ضرورياً شراء نصف أوقية من بذور دوار الشمس ملفوفة بقمع من أوراق الكتب المستعملة، وفي الاستراحة، لابد من زجاجة «سينالكو» لزوم المتعة الكاملة، ثم تلهث وراء أصوات المسدسات وحمحمة الخيل، والقبعات المائلة، وسرقات البنوك التي تتم في وضح النهار، من دون مقاومة تُذكر. في فيلم «مازال اسمي ترينيتي»، يدخل البطل بزي كاهن يتأبط الكتاب المقدس. يتقدّم من الكونتوار بثقة قدّيس. يفتح الكتاب، فنفاجأ بوجود مسدس، وقد حفر مكانه بين الصفحات. يستل المسدس بهدوء ويضعه أمام أنف الموظف. الموظف الذي يباغت بهذه الحيلة المبتكرة يناوله المال، ثم يخرج الرجل سالماً. لكن الإثارة الكاملة كانت تحدث مع ذلك الصوت الرخيم الذي يرافق فقرة «قريباً على الشاشة»، أو ما كان يُسمى «مناظر»، قبل عرض الفيلم مباشرة. لا

تزال ترنّ في أُذنيّ عناوين أفلام مصرية مثل «شيء من الخوف»، أو «نحن لا نزرع الشـــوك»، أو «حمّام الملاطيلي»، أو «قصر الشوق» بتلك العبارات والمشاهد التي تختزل قصة الفيلم بدقائق.

خلافاً لشـــغف أقراني بها، لم تستهوني الأفلام الهندية على الإطلاق، لكن فيلم «الزهرة والحجـــر» الذي أحدث دويّاً وصخباً في ذاكرة المدينة، لدرجة تمديد عرضه، مدة أســـبوعين إضافيين، أرغمني على مشـــاهدته أخيراً، أما فيلم «ماسح الأحذية» فقد قادني، إثر الخروج من الصالة إلى نوبة بكاء متواصلة، نظراً لكمية الميلودراما التي ترشح من أحداثه. كنت عائداً للتو، من إجازة نهاية الأســـبوع، و لم أجد أحداً في البيت، فشـــعرت بوحشـــة فتى الثالثة عشرة، أن أحداث الفيلم المحزنة أفضل ذريعة للبكاء على حال فتى وجد نفســـه وحيداً ومستوحشـــاً. هناك من يحفظ أغاني الأفلام الهندية مقلداً حركات ولواعج «شـــامي كابور»، غير أنني لم أمتلك هذه الموهبة أبداً، وإن كنت أحسد من يؤدي هذه الأغاني ببراعة، خصوصاً لجهة حركات الرّقص. كان جان كارات أشهر خطاطي إعلانات الأفلام الجديدة، يرســـم وجوه أبطال الأفلام بلوحات كبيرة ملوّنة، وعبارات برّاقة تغري العابرين في شـــارع بيروت لمشاهدة هذه الأفلام، وسوف يهزّ حـــدث عرض فيلم «كلنا فدائيون» مخيلاتنا، خصوصاً بحضور بطلة

الفيلم شخصياً. هكذا زحفنا إلى «سينما القاهرة» لمشاهدة البطلة. لم أجد مقعداً في الصالة المزدحمة، فوقفت في مؤخرة القاعة، من دون أن أتمكّن من رؤية الشاشة، ثم تسللتُ إلى الأمام قليلاً، كي أشاهد الممثلة هالة الشواربي التي صعدت إلى الخشبة، وهي ترتدي ملابس الفدائيين المرقّطة، وسط هتاف الجمهور المتحمس. أحسست أن مثانتي لم تعد تتحمل المزيد، حاولت أن أتسلل خارج الصالة دون جدوى، إذ لم يسمح لي الزحام التحرك إلى الخلف خطوة واحدة، اضطررت أن أفتح الحنفية، فسال بولي تحت المقاعد، ثم ابتعدت قليلاً عن مكاني السابق، متجاهلاً شتائم الشخص الجالس في المقعد أمامي مباشرة. تنفستُ الصعداء، وركزت عينيّ على الشاشة، وكان الفدائيون قد سبقوني إلى موقع العدو برشاشاتهم، قبل أن يقع أحدهم أسيراً بين يدي الضابط الإسرائيلي الذي كان قد نصب له كميناً بين الأحراش.

سوف تشهد «سينما القاهرة» زحفاً جماهيرياً غير مسبوقٍ على الإطلاق، فبعد سلسلة إعلانات «قريباً على الشاشة»، و«العرض القادم»، وصل أخيراً فيلم «خلي بالك من زوزو» لسندريلا الشاشة العربية سعاد حسني. كان من المستحيل الوصول إلى شباك التذاكر والحصول على بطاقة دخول، إذ سُدّ الشارع بالجمهور المحتشد،

فاضطرت إدارة السينما إلى الاستعانة بدورية شرطة، تمنع الجمهور من اقتحام الباب الزجاجي. بالنسبة لفتية هزيلين مثلنا، بات مؤكداً استحالة الدخول. في غمرة خيبتنا، أطلّ سمير العقلة بقامته الفارعة وعينيه الجاحظتين، من أول الشارع، وحين شرحنا له صعوبة الوضع، طمأننا بالدخول، ولكن بشروط جديدة. هذه المرة ينبغي أن نجمع له ثمن بطاقة في اللوج، وليس في الصالة الأرضية، كما هي العادة. بعد مشاورات محمومة جمعنا له ثمن البطاقة متخلينّ طوعاً عن ثمن زجاجات السينالكو. بعد أن أتمّ الصفقة، اخترق الصفوف إلى شباك التذاكر أولاً بمفردات غامضة توحي بأنه شخصية اعتبارية، ليعود بعد نحو عشر دقائق من العراك منتصراً، ترفرف بيده البطاقات الحمراء،عدا واحدة بلون أخضر تخصه. المشكلة الآن هي كيفية الدخول إلى الصالة بوجود شرطة يحملون هراوات لإبعاد الجموع. أمسكنا بأيدي بعضنا في رتلٍ أحادي، يتقدمنا المغوار سمير العقلة، لنجد أنفسنا بعد دقائق من الجحيم والعراك، داخل الصالة. منذ هذه اللحظة ستصبح سندريلا الشاشة سعاد حسني معبودتي الجديدة، متخلياً عن ناديا لطفي من دون ندم.

ببنطلون شارلستون خمري يحمل لمسات الخياط أنطون حنا، صاحب

محـــل «الخياط العصري»، وقميص مشـــجّر، وحزام عريض بإبزيم مذهّب، كنت أراقب فتاتي، خلال إيابها من مدرســـة «بور سعيد» المتاخمة لمدرســـتي، إلى أن تعرفت إليها وجهـــاً لوجه، خلال زيارة لأصدقاء من قرى مجاورة، كانوا يســـتأجرون غرفة في منزل ذويها، تقع قبالة البيت الذي نقطن، وإذا بي بعد نحو ثلاث زيارات، أحصل على فرصة ذهبية لا تعوّض، فقد طلب مني شـــقيقها أن أساعدها في مراجعة دروســـها. كانت أول فتاة أشمّ رائحتها عن قرب، وألمس أصابع يدها اليمنى فوق صفحة دفترها المفتوح، أو أن تصطدم ركبتي بركبتها. كنت أصعد إلى ســـطح البيـــت، أراقبها وهي تجلس على كرسي واطئ من القش أمام عتبة بيتها. كان ينقصني في تلك الحقبة العاصفة لموضة الخنافس غُرة تغطي جبيني، فقد كان شـــعري أجعد، ومن الصعب أن ينســـدل إلى الأمام، كي أرفعه بحركة من رأسي إلى الوراء، كما يفعل الآخرون بسهولة، إذ باءت كل محاولاتي بالفشل، وبأحزان دفينـــة أمام مرآة الحمّام اقتنعت بـــأن لا أمل يرتجى. بعد ســـنوات ستواجهني مشكلة جمالية لا تقل وطأة عن تسريحة شعري، تتعلق بســـالفيّ. كنتُ انظرُ بوقار لأصحاب السوالف العريضة على شكل مثلث حاد الزوايا، ورغم محاولاتي في تربية سالفين عريضين، إلا أنّ شعر ذقني، لم يكن كثيفاً بما يكفي لتحقيق هذه الأمنية. الآن

حين أنظر إلى ما تبقى من صوري الفوتوغرافية في تلك المرحلة، أكاد لا أعرف ذلك الفتى الهزيل بعينين غائرتين، وشعر كث متموج بفرق إلى اليمين، وأضلاع بارزة من صـــدره، في لقطة، أبدو فيها عاري الصدر، خلال أحد تمارين رفع الأثقال بإشراف المدرّب سمير العقلة شخصيّاً.

(اختفى سمير العقلة من غويران، ومن مدينة الحســـكة كلها، ثم عاد بعد ســـنوات بثياب عســـكرية مرقّطة، وبوشم سيفين متقاطعين فوق ساعده الأيسر، وشعر حليق. لا أخبار مؤكدة عنه بعد هذا التاريخ. يقال بأنه شـــارك في إبادة سكان زقاق كامل في مدينة داخلية شهدت مذبحة كبرى، في صراع السلطة مع جماعة الأخوان المسلمين، أوائل الثمانينات، وهناك من أكدّ مشاركته في مقاومة الجيش الإسرائيلي خلال غزوه بيروت في العام 1982، وأغرب الإشاعات عنه تؤكد انضمامه إلى عصبة من المغاوير كانت تخوض حرب عصابات على حدود تشاد).

كان زوج خالتي، عســـكري محطة المحروقات، يقتني آلة تســـجيل ماركة «فيليبس» بشـــريط كاسيت، يحمل صورة أم كلثوم، وأغنية «دارت الأيام»، وشـــريط آخر لتسجيلاته الخاصة، و لم يكن يسمح

لنا بتشـــغيل الآلة في غيابه، إذ كان يقفل باب غرفته بمجرد خروجه من البيت، لكننا سنتسلل من النافذة، ونستعمل الآلة للاستماع إلى هذه الأغنيـــة التي باتت مضجرة بمرور الوقت، ثم تطورت اللعبة إلى تسجيل أصواتنا والاســـتماع إليها، بعد محو مذكرات زوج الخالة. وسيجرّب صديقي حسين جدعان الذي كان يستأجر غرفة ملاصقة للبيـــت الذي نقطن، صوته بعتابا مجروحـــة «أويلي..أويلي..فراق الغوالي أدعى الجبد(الكبد) غربال»، وحين اكتشـــف زوج الخالة ما كان يحـــدث في غيابه، أصدر فرماناً فورياً بمنع «الملك حســـين»، كما كان يدعوه ســـاخراً، من زيارتنا، ومنعنا من زيارته، إضافة إلى عقوبة مسلكية تتعلق بتنظيف الحوش من الأوراق المتطايرة التي تخلّفها عريشة العنب، وكان ينهي محاضراته على الدوام بجملة بليغة هي «لا حياة لمن تنادي».

ابن العم الأكبر الذي اســـتلم القيادة بعد أن أنهى العسكري خدمته، وعاد إلى القرية، اخترع عقوبات أشدّ صرامة، لمن يتجاوز التعليمات، أحدها الحبس في المرحاض. حين جاء دوري في تنفيذ العقوبة بسبب وشـــاية تؤكد بأنني، لم أنفّذ قرار مقاطعة حســـين جدعان، وإنني ما زلـــت أزوره في غرفته، رفضتُ الأوامر بشـــدّة، وغادرت بيت «غويـــران»، بعد أن خلعت باب المرحاض، إلى بيت جدي في قلب

المدينة. شرحتُ مشكلتي لخالي الذي كان يدرس الكهرباء في المعهد الصناعي، فقرر معالجة الأمر على الفور، خشـــية أن أشاركه السكن في البيت. لم تكن لديّ رغبة في العودة إلى ذلك البيت البائس، مقارنة ببيت جدي الذي يقع على مفترق شارع جمال عبد الناصر وشارع فلســـطين، لكن خالي أراد التخلّص من أعبائي سريعاً، فأعادني ليلاً إلى «غويران».

كانت حصيلة هذه الزيارة ساعة يد مستعملة ماركة «جوفيال»، و نســـخة ممزقة من كتاب «آلام فارتر» لغوته، وجدته مرمياً في ركن من الصالون، وصندويش «بسطرما» من محل شهير يقع في الشارع الموازي لبيت الجد، بالإضافة إلى زوجين من الجوارب المســـتعملة، وجدتهما في سلة غسيل في المطبخ، إذ لم يكن لدي سوى زوج واحد من الجوارب المثقوبة.

كنا نخرج مســـاء كل يوم تقريباً إلى المدينة عبر الجسر الذي يربطها بضاحية «غويران»، في محطة أساسية تبدأ بواجهة «استديو كبرائيل» للتصوير، نتأمل الصور الملوّنة يدوياً، ببراويزها المذهّبة، أو نلتقط صوراً جماعية للذكرى، ثم نعرّج على «مكتبة الحريّة» نتوقّف طويلاً أمام أغلفة المجلات التي تصل مساء كل سبت، ثم واجهات محال الثياب والعطور، لتنتهي الجولة بمطعم «الهناء» للفلافل. لم أســـتطع إكمال

صندويشة الفلافل يوماً. كنت أكتفي بنصف صندويشة غالباً، فيما يتسابق أبناء العم، و«الملك حسين» بالطبع، على إرضائي، طوال الطريق، عسى أن تكون بقية الصندويشة من نصيب أحدهم. كان حسين يغريني أحياناً، بالذهاب إلى مطعم «الأندلس» الذي يقدّم وجبات ساخنة من الفاصولياء بخمسين قرشاً للوجبة الواحدة، وهو مبلغ خطير يعادل ثمن صندويشتي فلافل. كنت أوافقه حين يكون والدي قد ترك لي مبلغاً في عهدة بائع أقمشة، كان يتعامل معه، وزيادة في التبذير، كنا نقتحم محل «حلويات أبو سمير» لنتشارك في فطيرة شعيبيات لذيذة.

في حالات الإفلاس التام، كنا نمرّ ذهاباً وإياباً أمام «مقهى أمين» حيث اعتاد أحد الأعمام الجلوس فيه، خلال وجوده في المدينة، إلى أن يشير إلينا بيده، أن ندخل، ثم يصحبنا إلى مطعم «الوادي الأخضر»، وهو مطعم طبخ فاخر بمقاييس تلك الحقبة. الوجبة اللذيذة تنتهي بطبق «رز بالحليب»، أو «كاسترد». كان حسين جدعان يختفي بوجود أحد أقاربه المرضى غالباً، في المشفى الوطني، ثم يظهر بحكايات أطول من الساعات التي غاب فيها. حكايات تفوح منها رائحة الكباب، أو الكبدة المشوية التي اشتهر بها «مطعم الأتوماتيك» المجاور للمشفى، وكيف لم يتمكّن المريض من إتمام

الوجبة فأجهز عليها كاملةً مع برتقالتين.

كان حسين مفلساً على الدوام، إذ لم يكن لدى والده ما ينفقه عليه، وفي أحسن الأحوال، تمنحه أمه جزة من صوف الأغنام، كي يبيعها، ويتدبر أمور مصاريفه، إذ كثيراً ما نعود من الإجازة متأخرين، ريثما يؤمن حسين مصروفه، كأن يسرق ما جمعته جدته من بيض خلال شهر، ليحمله في سطل محشو بالتبن ثم يبيعه إلى صاحب دكان في جوار مسكنه، أو يستدين خمس ليرات من صاحب الدكان الوحيد في القرية، على أن يسدد ديونه في الإجازة المقبلة، مقابل خدمات زراعية مثل سقاية حقل القطن، أو تشذيب ساقية من الأعشاب الضارة.

على الطريق العام الذي يقع على الجهة الأخرى من نهر الخابور بمسيرة نحو ساعة على الأقدام، سننتظر طويلاً شاحنة عابرة كي تقلنا إلى مدينة الحسكة، وسنتكوّم أخيراً في كبين الشاحنة إلى جانب السائق مقابل ليرة واحدة لكل راكب، فيما كان يترتّب علي، بسبب من هزالي الشديد، نصف ليرة، باعتباري «نصف راكب».

بعد شراء دويك العبود شاحنة نصف نقل، تغيّرت أحوال المسافرين، فصرنا نسافر معه في صندوق الشاحنة إلى جانب أكياس الحنطة

والبهائم والصوف في رحلة طويلة تستمر نحو ساعتين، بسبب التوقف المستمر بين القرى، أو لعطلٍ طارئ يصيب المحرك. الكبين الأمامي كان محجوزاً على الدوام للنساء، والمرضى، والعساكر، في حال كان أحدهم في إجازة. دويك نفسه، سيغيب أسبوعاً في حلب، ويعود ببوسطة مستعملة، وسيتقاطر أهالي القرية إلى بيته للتهنئة من جهة، وللفرجة على البوسطة، أو «العروس» من جهةٍ ثانية، نظراً لكثرة الإكسسوارات المتدلية من سقفها، ووجود آلة تسجيل في أحشائها، وكتابات من نوع «سيري فعين الله ترعاكِ»، و«ما شاء الله»، و«عين الحسود فيها عود»، لكن هذه التمائم، ونحر خروف وتلطيخ مقدمة البوسطة بدمه، لم تحمِها أكثر من ثلاث رحلات متقطّعة، ليتحوّل الركاب الأشداء إلى ورشات متعاضدة في دفعها إلى تلّةٍ عالية، ثم دفعها من أعلى التلّة إلى مترلق ترابي، لينطلق المحرك مجدداً في شخير طويل، قبل أن تتوقف مرة أخرى، بسبب ارتفاع حرارة المحرك. لم يكن دويك العبود يفقه شيئاً في ميكانيك السيارات، لكنه ما أن يرفع غطاء المحرك، ويعبث بالأشرطة والمعادن المتشابكة كالأمعاء، حتى يهدر صوت المحرك مجدداً، في رحلة عجائبية، على أنغام أحد مغني الربابة المحليين، لتنتهي في «سوق الماشية»، ثم يتفرّق الركاب بعدها إلى شؤونهم.

مشـــهد سوق الماشية فرجة من نوعٍ آخر: بهائم وبشر في مساومات صاخبة، وأصوات متداخلة. ثغـــاء أغنام، وخوار أبقار، ونهيق حمير وبغال، وأقفاص دجـــاج، وبائعات لبن، ونداءات دلّالين، وعربات شـــواء، ومقاهٍ مرتجلة، في أطراف الســـوق. في هذا الســـوق أطلق أحدهم ثـــلاث رصاصات في دماغ رجل آخر يحمل وزر ثأر عمره أحد عشـــر عاماً، جعل مشيته عرجاء بين رجال عشيرته طوال هذه الفترة، وهاهو يرفع «خشمه» عالياً بين القبائل.

في صبيحـــة يومٍ خريفي من تشـــرين الثـــاني، في العام 1970، منع أشخاص متجهمون عبور طلاب الثانويات والإعداديات الجسر إلى مدارس المدينة، احتجاجاً على حدث، قيل إنه ســـيزعزع اســـتقرار البلاد، ففي هذا اليوم حدث آخر انقلاب عسكري في سورية، قاده وزير الدفاع، لتتم بعدهـــا مطاردة معارضي الانقلاب. لكن هؤلاء ســـرعان ما انخرطوا بالبرنامج الانقلابي الجديد، تحت ذرائع مختلفة، وبعضهم الآخر انتهى إلى السجن.

انقلاب عســـكري؟ لم ندرك معنى هذه العبارة بدقة، وإن أحسسنا بغبطة غامضة، تتعلق في المقـــام الأول بيوم عطلة غير متوقّع، يعفينا من دوام مضجر، ووظائف مدرســـية صعبة، لكن الأمر سيتكشف لاحقاً عن شعارات ثورية جديدة، ومسيرات ليلية، وحملة مشاعل،

ولافتات، وأفلام وثائقية عن «الحركة التصحيحية» تسبق عروض الأفلام في صالات السينما، وصور ضخمة تملأ الشوارع والمكاتب الحكومية، وتماثيل في الساحات العامة، ووعود بزيارة تاريخية سيقوم بها الرئيس للمدينة.

(كان آخر رئيس زار الحسكة هو شكري القوتلي، ثم جمال عبد الناصر أيام الوحدة).

هرب ابن عمي البعثي المعارض للانقلاب إلى العراق متنكراً بزي راعي أغنام، وبعد نحو سنتين عاد إلى البلاد مكفّراً عن ذنوبه، إثر تدخّل ضابط كبير، لينخرط هو الآخر بالبرنامج التصحيحي الجديد للحزب بحماسة، كان ثمنها منصب إداري مهم في شركة النفط.

(في وقتٍ لاحق سنملأ استمارات جماعية، بأمر من مدرّس المادة العسكرية، للانتساب إلى الحزب، لكن هذه الاستمارات ستضيع في الأدراج، من دون أن نحقق أحلامنا في حضور اجتماع حزبي واحد).

مدير إعدادية الثورة، وهو صديق شخصي لابن العم، منحنا إجازة استثنائية لاستقبال الغائب. كنت سعيداً لسبب آخر هو عدم حضور درس مادة الرياضيات بغياب مبرّر، فقد كان المدرس صارماً

ومتوحشاً، وكنت كسولاً في فهم المعادلات الرياضية. كان هذا المعلم، كما كان يتهامس الطلاب في الباحة، يعشق زميلة له في المدرسة المجاورة التي تطل شرفتها على مدرستنا مباشرة، وكان ينفذ العقوبات للطلاب الكسالى في الممر كي تشاهد حبيبته المنظر: يضع كرسي خيزران أمام الباب، ثم يجلس الطالب المعاقب مرتجفاً بانتظار هبوط عصا العاشق على قدميه الحافيتين.

سوف يعلّق والدي صورة رئيس الجمهورية الجديد بزيّه العسكري إلى جانب صورة جمال عبد الناصر في غرفة الضيوف، وستتلوهما لاحقاً صورة ثلاثية لرؤساء اتحاد الجمهوريات العربية: أنور السادات وحافظ الأسد ومعمّر القذافي، وقد ظلت الصورة معلّقة بعد انفراط الاتحاد، فترة طويلة، لتحلّ مكانها صورة أبي بربواز مذهب، وقد ظهر حزام المسدس فوق صدره، إلى جانب صورة لأحد الأولياء المحليين.

كان حسين جدعان مغتبطاً بمزايا تخصه وحده، مثل حصوله على نسخة مجانية من الكتب المدرسية، أو إعفائه من بند التبرع للصندوق المدرسي، أو «مشروع الفرنك»، بعد إدراج اسمه في قائمة «فقر حال» للتلاميذ المعدمين، لكنه بغمزة من عينه اليمنى، كان يدعونا إلى الصمت أمام الغرباء، وهو يروي لهم عراقة سلالته، والأراضي

الشاسعة التي كانت بحوزتهم، وبقايا العبيد الذين يعملون في خدمة هذه الأملاك، قبل أن يفتتها قانون الإصلاح الزراعي، إلى أن وقع مرةً في ورطة، حين أخبره أحدهم رغبته في قضاء يوم العطلة في أحد البساتين التي اخترعها كأملاك لأهله، خلال شطحاته التخييلية، لكنه تملّص منه بحنكة، أسبوعاً وراء آخر، إلى أن تبخّر الوعد تماماً.

بعد انتظار طويل، قرب محطة المحروقات في مدخل المدينة، توقفت تاكسي صفراء موديل الخمسينيات، ماركة «دودج»، وأشار السائق لنا بالصعود. كانت السيارة من دون ركاب. صعد «الملك حسين» إلى جانب السائق، وصعدتُ إلى المقعد الخلفي إلى جانب كومة من أكياس مسحوق التنظيف، وبدلاً من أن نصل في حدود ثلاثة أرباع الساعة إلى «استراحة علوش»، وهي نقطة العلّام المقابلة لموقع قريتنا في الضفة الشرقية لنهر الخابور، استغرقت الرحلة نحو أربع ساعات، إذ كان السائق يتوقف في كل القرى المحاذية للطريق العام لبيع بضاعته من مساحيق التنظيف عبر ميكرفون متهالك. بعد المحطة الأولى، وافق السائق، أن يستلم حسين الميكرفون ويجرّب صوته في النداء، فيما انهمكتُ في توزيع الأكياس على الريفيات اللاتي تجمعنّ حول التاكسي، واكتفى السائق بقبض النقود. ما إن لفظتنا التاكسي بالقرب من محطة الـ 47، وابتعدتْ قليلاً،

حتى اتخذ حسين هيئة الساحر: أخرج من مؤخرة سرواله ثلاثة أكياس مساحيق، ومن جيب قميصه سيجارتين، ومن جيب سرواله الأمامي ثلاث قطع معدنية من فئة الخمسين قرشاً. وبدلاً من أن ننحدر باتجاه قرية الرشيدية التي يدل عليها سهم صدئ، انعطفنا إلى الاستراحة. اخترقنا الطاولات التي كان يحتلها سائقو شاحنات، إلى عامل يقف وراء كونتوار مرتجل. أوصى حسين على صندويشتين من مقلي الباذنجان والبيض المسلوق، وبعد أن أجهزنا على الوجبة اللذيذة. استعار حسين علبة كبريت من عامل البوفيه، ثم انطلقنا باتجاه القرية عبر طريق ترابي متعرج ينتهي إلى موقع السفينة. قبل أن ننحدر إلى الشاطئ، اكتشفنا أن السفينة ترسو في الضفة الثانية، وقد غادر الفلاحون أراضيهم بعد الغروب مباشرة. لوّحنا مراراً للراعي الذي كان يبتعد بأغنامه، عسى أن يلتفت إلى جهتنا من دون جدوى. أشعل حسين سيجارة، ومجّ منها نفساً عميقاً، ثم ألقى بالعقب في الماء. خلع ثيابه، وخاض في المياه الباردة، متمسكاً بالحبل المعدني للسفينة الذي يربط مابين الضفتين، وهو يغنّي لتبديد خوفه ربما. ستستيقظ مخاوفي في عتمة الشاطئ، لمجرد سماعي أصوات ضفادع وزيزان، وحركة كائنات لا مرئية في أشجار الزّل الكثيفة. السعلاة ترقد في عمق الماء، كما ترقد في مخيّلتي، هل ستظهر على

هيئة امرأة جميلة وتخطفني إلى الأعماق؟ هل ستتسـلل أفعى وتلدغني في العتمة؟ كنا حين نذهب إلى السباحة في النهر وقت الظهيرة نضع إبرة في عروة القميص ونوجهها إلى الشـمس كي ينعكس لمعانها في الماء، فتخاف السـعلاة وتهرب إلى متاهتها بحجراتها السريّة. هكذا نغطس في الماء باطمئنان، ونغوص في الأعماق لشرب ماء العروس. نعبرُ إلى الضفة الأخرى في سباق محموم، ثم نتسلل إلى حقول القطن المهجورة في فترة القيلولة، نستولي مثل بنات آوى على ثمار البطيخ، نعبث بنباتات القثـاء، والبندورة، والباميا، وأكواز الذرة الصفراء، وقصب السكر، وما أن يلمحنا صاحب الحقل ويأتي مهرولاً باتجاهنا، حتى نقفز إلى النهر في صخب طفولي غير عابئين بتهديداته وشتائمه لأمهاتنا. ولكن من يمنع السعلاة الآن من الظهور؟

لم يكن لدينا أسـرّة خاصة للنوم، كنا ننام فوق فراش عائلي في غرفة واحدة في الشـتاء، أو عند الفناء الغـربي للبيت، خلال ليالي الصيف الملتهبة، ورغم أن أحد الأولياء العابرين، قد سـقاني كأس ماء ممزوجاً بالملح وشـيئاً من بصاقه، وبعض التمائم والتعاويذ، لحمايتي من لسعة العقرب، إلا إنني لم أثق بهذه الوصفة أبداً. كنت أستيقظ مراراً في الليل خوفاً من أن تتسلل عقرب إلى فراشي، إذ كنت أنام في الجهة المفتوحة على العراء. لم تلسعني عقرب يوماً. هل حمتني تمائم ذلك الولي حقاً؟

كان بيت أهلي لا يخلو من زائر عابر، أو مقيم. في إجازتي المدرسية الأخيرة، وجدت شـــخصاً غرائبياً، يرتدي سروالاً وقميصاً ويعتمر قبعة من القش، ونظارة طبيـــة سميكة بمقاييس خاطئة، كانت توقعه بمطبات في تقدير المســـافة الصحيحة. أخبرني بأنه الميكنسيان الجديد لمضخة الماء بعد أن هجر أسعد الفاضل عمله والتحق مريداً بصاحب أحد الطرق الصوفية. كان الميكنســـيان الجديد يرطن بلهجة لبنانية، وقد علمت بأن مصعب مطر الحسون، وهذا هو اسمه الكامل، كما قرأته في بطاقته الشخصية، كان يعمل طاهياً على باخرة يونانية، قبل أن ينتهـــي به الأمر إلى هذه القرية الملعونة. كان مطر أول من أدخل التوابـــل والبهارات إلى مطبخ أمي بوجبات لذيذة ونكهات حريفة، يبتكرهـــا من خضار متنوعة، ونباتات تنمو من تلقاء نفســـها، عند شـــاطئ النهر. لن يطول به المقام في القرية، بعد أن تطوّع جندياً في حرس الحدود، فاضطر أن يتخلّى عن القبعة القش ليستبدلها بشماخ أحمر منقّط وعقال يتوسطه نسر من المعدن شعار جنود الهجّانة، لكنه لم ينقطع عن زيارة أهلي أبداً، إذ كان يقضي إجازاته بيننا بحكايات غرائبية عن مهربين ومعـــارك ضارية خاضها عند حدود الصحراء، رغـــم أن قريته لا تحتاج في الذهاب إليها إلى أكثر من قطع المســـافة الفاصلة بين ضفتي نهر الخابور.

آخر مرّة قابلته فيها، وجدته رجلاً مهدّماً، من دون أسنان، وبحنجرة أتلفها السرطان، ويد يمنى مبتورة الأصابع بانفجار قنبلة خلال مداهمة اشتبك خلالها مع مهربي الحدود. فهمت من إشارات يده اليسرى، وصوته الواهن، أنه يقطن في أحد عشـــوائيات ريف دمشـــق، وقد تزوّج من فلســـطينية أرملة تعمل في تغليف الشوكولا، أنجبت له ابنة لم تكمـــل تعليمها، هربت مع لاجئ عراقي، من دون أن يتمكّن من تحصيل مهرها أبداً، أو أن يراها مرةً أخرى.

بؤس الحال، لم يمنع مصعب مطر حســـون، من ترميم سيرته بوقائع مشـــتهاة، ذلك أن هذه الوقائع تخضع لإضافات مستمرة، لم تحدث في روايتـــه الأولى لها، كزواجه من امرأة يونانية التقطها من حانة في ميناء أثينا، وقد نســـي أنها كانت شقراء إيطالية وفقاً لرواية سابقة، يدعمها على الدوام بصورة عتيقة يستلها من جزدانه، هي في الواقع مجرد بطاقة بريدية لمدينة إسطنبول، كما هو مكتوب خلف الصورة. صورة فتاة على ضفاف البوسفور بثياب البحر. تحت شجرة التوت الضخمة التي تحرس مضخة الماء، كنّا نقطف ثمار حكايات مســـافرة على صهوة جياد يسوسها مصعب بلكنته اللبنانية المستعارة عن نساء فارهات لايســـتر عريهن أكثر من حمّالات صدر ومايوهات بالكاد تخفي تفاحهنّ الشهي. كان حمود الأخرس الغارق إلى ركبتيه بطين

الحقول، والأحلام المؤجلة بالزواج، يقتحم الدائرة بضحكته البلهاء، ومعطفه العسكري ذي الأزرار المذهّبة، فيطلب من مصعب على الفور، إخراج الصورة من جزدانه، في سيناريو مكرّر. يتأمل الصورة طويلاً، ثم يعيدها إليه، ليروي بإشارات من يديه، وحشرجة تأوهات حيوانية، عن ليلة عرسه التي لن تحدث أبداً، وكيف سيرفع ساقيّ العروس إلى كتفيه ثم يلجها غير عابئ بصراخها، فيوقفه مصعب مقلّداً حركاته الزفافية، وهو يشير بأن يذهب إلى الشاطئ لمضاجعة عروسه ذات الأذنين الطويلتين، في إشارة إلى نهيق أتان مربوطة هناك، الأمر الذي يثير غضبه بالتأكيد، فينسحب غاضباً ومزمجرا ومهدداً. كان حمود الأخرس يعمل لدى شقيقه الأكبر في سقاية حقول القطن والقمح مثل ثور حراثة، على أمل أن يفي شقيقه بوعدٍ قديم قطعه على نفسه «سأزوّجك على موسم القطن». ما أنْ تتفتح أجراس القطن، حتى يستيقظ حلم حمود الأخرس مجدداً بالزواج. يحمل جرس القطن ناصع البياض، ويدور به على بيوت القرية، بيتاً بيتاً، في إعلانٍ صاخب عن قرب موعد عرسه، لكن الشقيق الأكبر، سيراوغه مجدداً، ويؤجل الموعد إلى موسم القمح. يحمل حمود أول سنبلة خضراء في الحقل، ويدور بها مرةً أخرى على البيوت، بإضافة حركات جنسية سيقوم بها ليلة العرس، ليفاجأ لاحقاً بأن

شقيقه أضاف زوجة جديدة إلى زوجاته الأخريات، فيعود حمود إلى الاختباء في الشاطئ حاضناً عروسه ذات الأذنين الطويلتين بتنهدات مسموعة، وسينتظر بلهفة أن تتفتح أجراس القطن مرةً أخرى.

تحت وطأة فقدان الأمـــل، وفيما كانت الزغاريد تتعالى لحظة دخول الشقيق الأكبر مخدع عروسه الجديدة، تسلل حمود الأخرس إلى غرفته المتاخمة لحظيرة الأغنام، مســـتدرجاً كلبة بيضاء كانت ترقد في الفناء، قريباً من قدور اللحم، إلى غرفته. أرقدها فوق فراشـــه، وثبّتها بكامل قوة ساعديه في وضعية تتيح له استحواذها مثل امرأة، وأطاحها بعنف.

لم يفكّر حمود الأخرس لحظة واحدة بأن لحظة اللذة التي أدركها لثوانٍ، ســـتطارده بفضيحة أبدية، ذلك أنه حين حاول التخلّص من أحضان الكلبة، اكتشف استحالة الأمر، فتعالى صراخه إلى الدرجة التي سمعت به النساء اللاتي كنّ يوقدْنَ قدور اللحم في الفناء، فهبّ ضيوف العرس لاســـتجلاء ما يحدث في غرفة الأخرس. الملّا سراج العمري بحكمته الطويلة، أمر العريس بالتوجه إلى ســـاقية ماء قريبة والغطس بها. هكذا هرْوَل حمود الأخرس نحو الساقية وهو يحتضن الكلبة الفزعة التي كانت تعص على قضيبه من دون هـــوادة، وارتطم بالماء، فارتخت عضلات مؤخـــرة الكلبة على الفور وولّت هاربـــة، ثم تعالى صوت الرصاص ابتهاجاً بانتهاء محنة الأخرس، وعفّة عروس شقيقه الأكبر.

سوف ننسى حكايات مصعب مطر حسون إلى حين، بهبوب حكايات أخرى حرّكت الهواء الراكد في العتبات، ففي ظهيرة ملتهبة، توقفت سيارتا جيب، وترجّل منهما أشخاص بهيئات غريبة يرتدون قبعات معدنية صفر، يحملون أدوات قياس طوبوغرافية، وقد زرعوا محيط القرية بنقاط عـلّام هي عبارة عن أوتاد قصيرة تنتهي بأسلاك ملوّنة، قيل إن من يعبث بها ستنفجر به. سنكتشف لاحقاً أن هؤلاء الأشخاص ينتسبون إلى شركة أجنبية للتنقيب عن النفط.

كانت قيلولة مضطربة دبّ خلالها الرعب بين الأهالي في ظل إشاعات طائرة عن وجود آبار بترول، تعوم تحت الأرض، وستمحو القرية من الوجود، فهي حسب هواء هذه الإشاعات، تطفو فوق بئر نفط، كان قد ردمها الفرنسيون إثر انسحابهم من البلاد. تجرأ أحد العجائز على خلع الوتد المحاذي لحظيرة أغنامه، من دون أن يُصاب بأذى، على أمل أن يضلل الطبوغرافيين في زياراتهم القادمة، فيبتعدوا عن محيط بيته. تصرفه هذا، شجّع آخرون بأن خلعوا الأوتاد الملوّنة، واستعملوها في ربط البهائم.

كان هلال الجربوع، وهو رجل بأنف ضخم يخفي ملامح وجهه، أول من اهتدى إلى موقع «الكامب» القديم الذي غادرته الشركة

الأجنبيـــة، في الجبال المحاذية حدود العراق، فأخذ يتســـلل ليلاً إلى الموقع، وينهب المخلّفات التي تركوها إثر مغادرتهم الكامب: أبواب معدنية بمقابض من الألمنيوم المصقول، وشبابيك، ومغاسل، وصنابير مياه غير قابلة للاســـتعمال في قرية تجلب المـــاء على ظهور الحمير من النهر، و لم يكن مســـتغرباً أن يحضر بانيو حمّام من الســـيراميك الأبيض، انتهى إلى أن يكون ســـريراً لزوجته ضئيلة الحجم. كانت أسراب الدجاج والإوز تحوم حول البانيو فجر كل يوم، في مظاهرة احتجاج، إلى أن تســـتيقظ المرأة الضئيلة من رقادها، لتقديم الوجبة الصباحية لطيورها، ثم تعود إلى نومها القلق. أخيراً اهتدت إلى فكرة مبتكرة، وذلك بإقناع أنثى الديك الرومي بأن ترقد داخل البانيو فوق بيـــوض تخص البط والدجاج أثناء فترة رقادها فوق بيضها، وحين أنهت المهمة بعد ثلاثة أسابيع بتفقيس هذا المزيج من البيوض، كانت تتهادى أمام البيت، وهي تجر وراءها أغرب حاشية من الطيور.

البانيـــو بات حظيرة لدجاجاتها حفاظاً علـــى عدم ضياع إنتاجها من البيض في حظائر الجيران، ولسبب إضافي مهم، هو التخلّص من الكوابيـــس التي كانت تغزو نومها، منذ الليلة الأولى التي قررت فيها أن تضع فراشـــها داخل البانيو الذي تســـكنه العفاريت، حسب ما روته لجاراتها.

حـــين انتبه الآخرون إلى الكنوز الـــتي كان يحضرها هلال الجربوع من الكامب، حاولوا اقتفاء أثـــره، لكنهم أتوا متأخرين، و لم يجدوا سوى بقايا جدران من التوتياء والخشب والمعادن الصدئة، فاضطروا إلى خلع رخام الأرضيات، وأســـلاك الكهرباء، ومقاعد المراحيض، متجاهلين حقيقة إنهـــم كانوا يقضون حاجاتهم في العراء، لكن حمد العربيد سيجد في هذه المقاعد وسيلة لحماية أشجار الكينا الهزيلة التي غرســـها أمام بيته، من التلف أمام عواصف العجاج، وإذا بها تشمخ عالياً من فوهات المقاعد الغرائبية متحديةً الريح.

فجأة، غاب هلال الجربوع، نحو ثلاثة أيام متواصلة، في مهمة سريّة، ليعود فجر يـــوم جمعة بصحبة أربعة حمير محمّلـــة ببضاعة جديدة. سنسمع باسم «المحطة» لأول مرّة، وهي نقطة حدودية بين سوريا والعراق. هلال الجربوع الذي كان يدخّن سجائر حموي ممتاز لف، أخرج علبة تبغ خضراء من جيبه، وأدارها على الحضور. كان التبغ يحمل ماركة «سالم» بنكهة النعناع ينتهي بخطين ذهبيين عند الفلتر، ثم فرد بضاعته فوق حصير وســـط غرفة الضيوف. الغرفة لم تتســـع للزوار الذين توافدوا من كل البيوت للفرجة على البضاعة الجديدة، فامتلأت ســـاحة البيت بما يشـــبه مظاهرة صاخبة، بعد أن تسرّبت بعض الحاجيات إلى الســـاحة: حناء صناعة الموصل، صابون معطّر،

مسكة بطعم البطم الأصلي، هباري من الحرير، كُحل عربي، صواني نحاسية، أباريق شاي، كؤوس شاي مذهّبة الأطراف، مصابيح تعمل على البطارية، سكاكين بمقابض من العاج، أغطية رأس رجالية ماركة «مركزيت». لن تتوقف مغامرات هلال الجربوع في اجتياز الحدود، وتهريب البضائع عند حدّ، فهو واصل تجارته الرابحة بالاتفاق مع حرس الحدود، مقابل نسبة محددة كان يدفعها بمجرد عبوره الحدود، هكذا بعد أن أنفق بضاعته بأسابيع، توقفت خلف بيته شاحنة معبئة بالتمور العراقية المشهورة، وعبوات الدبس، ماركة «النخلة»، وستنهض طفولتنا على سعف التمر في وجبات يومية مع اللبن الرائب. لهذه الوجبات فضل مؤكد في نمو عظامنا الهزيلة، أما الدبس المخلوط بالسمن العربي فكان وجبة فاخرة غير متاحة على الدوام، إذ تُقدم للضيوف الطارئين. يستعيد حمد العربيد، بأسى ممزوج بفكاهة مرّة، وهو يرتشف الشاي المخدّر، صورة ذلك الطفل الذي كان لا يغادر فراش والدته، في شهقات موتها الأخيرة، ليس حزناً على فراقها، بل لسببٍ وحيد، هو أن يكون أول من يخطف صحن الدبس المركون قرب رأسها، فور الإعلان عن موتها، ويتذوّق طعم الدبس الذي كان يُقدّم كعلاج للمرضى فقط. يمجّ سيجارته عميقاً، ثم ينطق بحكمة أخرى «في التاسعة كنت ولداً يتيماً، يرعى

الجمال. كنت أهرشُ رأسي على الدوام لغزارة القمل في شعري، إلى أن اهتديت إلى وصفة ناجعة للتخلص من القمل. جلستُ تحت ناقة، كانت تهمُّ في التبوّل، ووضعت رأســـي في مرمى بولها، فجمدّ البول شعر رأســـي، وصار مثل قطعة لبّاد كثيفة، سدّت المنافذ كلها على حركة القمل، وارتحت بعدها من الحكّ والهرش المتواصلين».

في أحـــوال البهجة العالية، كان حمـــد العربيد، يروي مغامراته أيام الطيـــش ممزوجة بضحكات مرتفعة، خصوصاً حين غامر بمعاشـــرة ناقة، بعد أن أغراه رعاة مجربون، بأن لذة معاشرة الناقة تفوق معاشرة امرأة. فجأة يعتدل بجلسته، ويقول «هل تعلمون أن الجمل لا يعاشر ناقته على الملأ؟». يصمـــت قليلاً ليرى ردود الفعل على كلامه، ثم يضيف «حين يرغب جمل ما بمعاشـــرة ناقة، يلجأ إلى ســـاتر ترابي مرتفع يختبئ وراءه، وفي حال اكتشفه أحدهم بالمصادفة، فإنه يطارده مسافةً طويلة للانتقام منه». يغمز باتجاه أحد الحضور ويقول متهكماً «ليس مثل معاشرة الحمير، أليس كذلك؟».

كان حمـــد العربيد قد اختار من بضاعة هلال الجربوع ســـاعة يد بإطار ذهبي، ورغم محاولاته الدؤوبة لتعلّم دورة الوقت، وماذا تعنيه العقارب المتعانقة فوق الأرقام اللاتينية، إلا أنه فشل تماماً في الانتصار علـــى هذا الاختراع العجائبي، لكنـــه لم يخلعها من معصم يده حتى

أثناء نومه، ولأن الجميع بات يعلم بمحنته، كانوا يسألونه عن الوقت للسخرية من جهله به، فيجيب مغمغماً، بعد أن يتأمل الساعة طويلاً، ويطرح سؤالاً مبهماً لمن يسأله بقصد تأجيل الإجابة «ياسيدي.. تفصلنا عن صلاة الظهر ساعة»، أو يجيب «بقي على موعد صلاة العشاء ساعة»، ثم يحمل إبريقه ويبدأ الوضوء، لكنه اضطر أخيراً بأن يهديها إلى ابنه المتعلّم.

كانت الساعة شبه معطلّة، فهي تتأخر نصف ساعة عن التوقيت الحقيقي، رغم تذكيره لابنه بشحنها يدوياً،عدة مرات في اليوم، وهكذا باتت مواعيد الصلاة، بالنسبة لحمد العربيد، تقع حسب مشيئة ساعته، وليس شروق أو غروب الشمس، كما كان يفعل الآخرون.

البضاعة الأخيرة التي أحضرها هلال الجربوع من المحطة، تطلّبت سريّة عالية منه، في الكشف عن محتوياتها، لكن الأسرار في القرى لا تصمد أكثر من غياب شمس واحدة. كان والدي يتأمل المسدس عيار 9 ميليمتر الذي ابتاعه من هلال بإعجاب، وقد جرّب فاعليته أول مرّة بطلقتين في رأس أفعى كانت تتسلل من وكر في الجدار الشرقي لحظيرة الأغنام، فارتطمت بالأرض جثةً هامدة على الفور. لم يكن حمل مسدس من دون ترخيص أمراً مستهجناً في القرى، بل كان

مثار اعتزاز ورجولة، خصوصاً إذا كان مرفقاً بحزام من الجلد المرصع بخـــرز النمنم الذي كان يجيد صنعه الســـجناء. لدى والدي صورة بالأبيض والأســـود وهو يرتدي حزام المســـدس، لاتزال معلّقة على أحد جدران غرفته إلى اليوم. كان موســـم فيضان نهر الخابور يلفظ عشرات الأفاعي إلى الشـــاطئ، الأمر الذي استدعى من والدي أن يوصي هلال الجربوع على بندقية صيد. كانت البندقية ملفوفة بورق مقوّى، تنتهي بمقبض من خشـــب الجوز المزخرف بأشكال نباتات، صناعة تشيكية، وفقاً لما قاله هلال الجربوع بخبرته المكتسبة. محاولتي الأولى في استعمال البندقية انتهت بفشلٍ فادح، إذ إن قوة الدفع لحظة إطلاق القذيفة، رغم تصفيق المعجبين، ألقت بي إلى الخلف، وطاش الخرطوش بعيداً عن الهدف بأمتار. أعدت البندقية إلى مكانها، وبقيت خائفاً لأيام، بأن يكتشـــف والدي نقصاً في عدد الطلقات، لكنه لم يواجهني بالأمر على الإطلاق، ربما لانشغاله بشؤون أخرى.

حادثة قتل نتيجة ثأر قديم، جرت وقائعها في ســـوق الغنم في مدينة الحسكة، أوصلت تحقيقات الشرطة إلى هلال الجربوع نفسه باعتباره بائع أســـلحة مهرّبة، فقد اعترف القاتل الذي سلّم نفسه على الفور للشرطة، بأنه حصل على المسدس من هلال الجربوع، وهو ما جعله شريكاً في الجريمة، حسب القوانين الحكومية. هكذا اضطرت مطرة

السـويلم، زوجة المهرّب إلى بيع ما تبقى مـن البضائع التي بحوزة زوجها، بربع أثمانها، لإخراجه من السـجن، عن طريق وسيط، كان يلتقط زبائنه من القرى، مقابل مبالغ ضخمة.

(سـبق أن أعفى الوسيط نفسـه، والدي من الجندية رغم أنه وحيد، مقابل ثلاثة خراف).

بعد خروجه من السـجن، وجد هلال الجربوع مهنة جديدة، هي تهريب الملح. كان المنجم إلى وقتٍ قريب مشاعاً بين العشائر، لكل فخذ من العشيرة بحيرة خاصة به، إلى أن وضعت الحكومة يدها على المنجم، ومنعت الأهالي الاقتراب منه، بوجود حارس ببندقية وراتب شهري، لكن هلال الجربوع لم يعترف عملياً بالإجراءات الحكومية، فهو كان يتسلل ليلاً إلى الأحواض البعيدة عن غرفة الحراسة، ويعود قبل الفجر بحمولة حمارين، ليستبدل كيس الملح بكيس من الشعير في صفقات ليلية مع تجّار أغنام من القامشلي، كانوا يخلطون الملح بمواد أخرى كعلف للحيوانات بقصد تسـمينها، وحين انتبه آخرون إلى أهمية هذه التجارة التي لا تحتاج إلى رأسمال، وفي المقابل، تحقق دخلاً معقولاً، خشـي هلال على تجارته، فأطلق إشاعة عن وجود قطعان من الذئاب والضباع تسكن كهوف المنجم، وأنه سمع بأذنيه استغاثة رجل حاصرته الذئاب، وحين وصل إلى مصدر الاستغاثة، لم يجد إلا

بقايا دماء، كما رأى ضبعاً يسحل بقايا جثة حمار نهشته الذئاب، فيما لم يسلم من جسم صاحب الحمار عظم واحد. الإشاعة التي أطلقها هلال الجربوع نبتت لها أجنحة في القرى المجاورة للمنجم، خصوصاً أن الاسم القديم للهضاب التي تشكّل محيط المنجم، كان يدعى «المضبعة». زيادة في إثارة الرعب في قلوب مستمعيه، روى هلال حكاية متداولة عن رجل فاجأه الضبع وهو يكوّم الملح عند طرف البحيرة، بلله برذاذ بوله وابتعد عنه خطوات، فسار الرجل كالمنوّم وراء الضبع إلى مغارته، واختفى إلى الأبد، وأنهاها بمثل متداول «سبع أم ضبع؟»، بمعنى هل تريد أن تعود رابحاً مثل السبع، أم خاسراً مثل الضبع؟ ذلك أن الضبع في الحكايات يكتفي عادةً بالجيف.

5

في أمسية صيفية مقمرة، وصل أسعد الفاضل إلى القرية. الشاب الذي كان يحملني أمامه على دراجة هوائية إلى مدرستي، عاد بلحية سوداء كثيفة بصحبة وليّ مبارك كان يتدرب على يديه، طوال فترة غيابه. كان اسمه «السيد كسّار»، وقد شاع هذا الاسم بين القرى كواحد من أتباع الطريقة الرفاعيـــة. في الليلة ذاتها دارت حلقة الذكر على إيقاع الدفوف في باحة بيت أســـعد المجاور لبيت أهلي، تسللتُ إلى الحلقة وجلست بعيداً عن السيد ومريديه، خشية أن يختارني أحدهم، أثناء حالة الانجذاب، ويضع ســـكينه على عنقي، من دون أن تسيل قطرة دم واحدة، كمـــا كانوا يرددون، نتيجة قدرات إلهية يتمتعون

بها، وما أن بدأ السيد كسّار بالدوران على إيقاع الدف وترداد عبارة «مدد..مدد.. يارفاعي مدد»، حتى استل أسعد شيشاً من الحديد، وغرزه في خاصرته، في أول تجربة عملية له على «ضرب الشيش»، أمام أهالي القرية، ثم تبعه السيّد كسّار بطعنات أخرى، من دون أن يحصل أي أذى للرجلين، و لم تسل نقطة دم واحدة من جسميهما، وهذا ما أثار دهشة الجميع. بهذا الامتحان يكون أسعد الفاضل قد بلغ مرتبة «السيّد» فعلاً.

كانت تقاليد حضور حلقات الذكر تقتصر على الرجال فقط، ولا يجوز أن يحضر ممن كان على ُجنب، ففي ذلك مخاطرة كبرى على حياته.

للتخلص من «الجنابة» عليك أن تطمس في ماء النهر ثلاث مرات متتالية. هكذا كان يردد من له خبرة، وكنا نغمز من بعضهم، وهم يقومون بتأدية هذا الطقس، فلم يكن لدينا شك بأن هؤلاء قد عادوا للتو من معاشرة أتان ربطها صاحبها في الشاطئ، أو داخل إحدى الحوائج في وسط النهر.

جرّب أسعد الفاضل أن يعيش حالة «السيّاد» بإقامة حفلات ذكر، في غياب معلمه، لكن أحداً لم يقتنع بقدراته منفرداً، خصوصاً إنه

أضاف إلى اهتماماته كتابة الأحجبة للمرضى والممسوسين والعشاق خائبي الحظ، من دون نجاحٍ يعتد به. لم يزدد حليب البقرة، بعد إحاطة عنقها بحجاب ينتهي بشريطة خضراء- كما كانت أمي تأمل- ولم تتوقف نوبات الصرع التي كانت تنتاب فطيم الأسود، مطلع كل ربيع، نتيجة حساسية تصيبها من رائحة أزهار البابونج التي تنبت أمام باحة البيت، وعند حواف النوافذ، ولم تنجب مطرة زوجة هلال الجربوع، بعد تسعة أشهر على ترديدها أسماء الله الحسنى عن طريق سبحة مؤلفة من مئة خرزة وخرزة زرقاء. هكذا أعاد دويك العبود رحلة يوم الجمعة إلى برنامج سفرياته، لزيارة أضرحة الأولياء عند تخوم الصحراء. كانت البوسطة تغص بالمسافرين والخراف والدّيكة، فجر يوم جمعة حار، مصحوبة بابتهالات وهمهمات بأن تكون زيارة ضريح الشيخ العابد، نهاية الآلام. تُذبح القرابين عند سور المقام، ويعود أصحابها في الليلة ذاتها، بحفنة تراب مقدسة، تُنثر تحت الفراش، قبل النوم، لملاقاة حلم يفسّر المصائر المؤجلة لهؤلاء البشر، لكن شيئاً لن يحدث في الواقع، لتبدأ رحلة بحث محمومة عن وليّ آخر، في مكانٍ أبعد.

كان السيد أحمد الحجازي صاحب مكانة مقدسة على امتداد قرى المحافظة، إذ يروي العارفون بأن غيمة فراشات غير مرئية، كانت

تظلل رأســـه كي تحميه من لهيب شمس الصيف، ومطر الشتاء، أينما توجه، وكان اسمه يثير الرعب والخشـــوع لدى الجميع، فمن يخالف مشـــيئته، سيجد نفســـه في الصباح التالي بفكٍ مشلول، أو بداء لا علاج له، وفي أحســـن الأحوال ســـيصاب بلدغة أفعى مميتة، وليس مستغرباً بأن يفقد فحولته إلى الأبد.

هذه القدرات التعجيزية للسيّد أحمد الحجازي التي ورثها عن سلالة تمتد بنســـبها إلى النبي محمد، أتاحت له أن يحلّ مشـــاكل معقّدة بين عشائر متناحرة.

يكفي أن تطأ قدماه عتبة بيتٍ أحدهم، بقصد إجراء صلح ما، حتى يتعانق المتخاصمون، وكأن شيئاً لم يحدث بينهما، كما سيوافق الأب علـــى زواج ابنته ممن رفضه زوجاً لها، بمجرد أن جاء الســـيد أحمد الحجازي في مقدمة «المشْـــية»، وزيادة في التبجيل سيخفّض مهرها إلى النصـــف، وقبل أن يغادر المكان، يكون عجل صغير أو خروف، قد أخذ مكانه في مؤخرة السيارة. في موسم الحنطة ستتكدس أكياس القمح في عنبر خاص، إلى أن تأتي شاحنة، وتجمع حصة السيد أحمد الحجازي من القرى الموجودة على خط سيرها لجلب البركة في رزق الأهالي. المحظوظون وحدهم، كانوا يحصلون على عصا السيد، وهي من الخيزران الذي ينتهي بمقبض معقوف، بعد شـــراء واحدة جديدة

له، بدلاً من تلك التي رافقت خطوات هذا الوليّ الصالح، وهناك من يحصل على سبحته المصنوعة من العاج الملبّس بالفضة، أو صورة شخصية له ببرواز مذهّب. كان الولي الذي يقطن أحد أحياء المدينة الفاخرة، يستقبل مرضاه من الأرياف صباح الاثنين، فيما تستقبل زوجته المباركة، حشود النساء، صباح الخميس، وكان على دويك العبود، أن يخصص رحلة البوسطة في هذين اليومين المباركين لمرضى الوليّ، ولطالما ردّد في مجالسه، أن بركات الوليّ أحمد الحجازي هي من كان يحرس البوسطة من الأعطال في هاتين الرحلتين، وكأنها تسير بمشيئة الهواء وليس بقدرة البترين.

حين عادت شريدة المخيبر إلى القرية، حكت طويلاً عن النورانية التي كانت تشع من وجه زوجة الولي، وكيف تبددت آلام معدتها بمجرد أن لمست السيدة المباركة بطنها، ثلاث مرات صعوداً وهبوطاً، وسقتها كأساً من عصير الحنظل الممزوج بالأدعية، لكنها في حقيقة الأمر، وحسب تعليقات ابنها عايف المردود، شفيت من آلامها تماماً، بمجرد إجهازها على وجبة الكباب التي تناولتها بشهية في مطعم الطاووس الهندي الذي يضم جناحاً للعائلات. كان مطعم الطاووس الهندي الذي يقع في زقاق فرعي من شارع بيروت. الشارع الذي يشكّل وسط المدينة القديمة، ملتقى للزبائن القادمين

من الأريـــاف، وكان صاحب المطعم يدرك تماماً نوعية زبائنه، وهو ما شجّعه على أن يطحن بقايا الخبز والدهون والعظام وبعض التوابل الحرّيفة في آلة فرم اللحوم في خلطة عجائبية، وقد أُشـــيع بأنه كان يذبح الحمير بدلاً من الخراف، وربما لهذا السبب كان زبائنه يفضّلون وجباته الشهية، إذ تجلب لهم أحلاماً ليلية مع حوريات عاريات حتى من ورقة التوت. كان الكباب بالنسبة لبعض البداة معجزة حقيقية، فذهاب أحدهم إلى المدينة لا تكتمل أسبابه، من دون أن يتناول وجبةً من الكباب على الريق، ثم يُتبعها بكأس شـــاي مخدّر وسيجارة من مقهى الآشـــوري المتاخم للمطعم. ما أن تلفظ بوسطة دويك العبود حمولتها من البشـــر وبعض البهائم، في محطتها الأخيرة، عند ســـوق الماشـــية، بحدود السابعة والنصف صباحاً، حتى يتجه معظم الركاب إلى أقرب عربة شـــواء، للحصول على وجبة ساخنة من الكباب، ثم يلتفتون بعد ذلك إلى أعمالهم الأخرى بكامل لياقتهم، وهم ينكشون أسنانهم بمباهاة.

غالباً ستجدهم في شارع بيروت. الشارع الذي تتوزعه محال الأقمشة، والخياطـــين، والمقاهي، وعيادات الأطبـــاء، والصيدليات، و«مكتبة الحرية»، ومرآب تاكسي الحسكة- القامشلي — دير الزور، وبائعو الأحذية، ومحلات الثياب الجاهزة. أمام محال الأقمشة، يعرض هؤلاء

الريفيون منتوجاتهم من الصوف والسمن العربي والأجبان، مقابل عمولة يحصل عليها صاحب الدكان، لكن العلاقة ستتجاوز البيع والشراء إلى صداقة ومصالح متبادلة، فلكل ريفي من هؤلاء «عميل» في المدينة، غالباً ما يكون من النصارى لأمانته ولطافة معشره. عميل يستدين منه مالاً، أو أقمشة، يسددها في موسم قطاف القطن، أو حصاد القمح.

في ركن داخلي من المحل، تجد المرضى، ينتظرون موعد انطلاق البوسطة في طريق العودة، يكومون أكياس الأدوية أمامهم،أو نساء يجهزنّ عروساً بشراء أقمشة فاخرة. وجود قماش مقصّب أو قماش من المخمل يدعى «طش الورد» في جهاز العروس، دليل أن العروس ذات شأن، ونظراً لصعوبة فرز أنواع الأقمشة، فقد كان القرويون يخترعون أسماءً مضحكة لهذه الأقمشة مثل «طف الضو والحقني»، أو«درب التركتور»، وحتى «دمعة جابر» إثر غزو صدام حسين الكويت.

كنا نقوم بجولات تسكّع في هذا الشارع، عسى أن نصادف أحد الآباء أو الأعمام، على أمل غامض بالحصول على مبلغٍ من المال مهما كان زهيداً، وهو لن يتجاوز الليرات الخمس بأحسن الأحوال، أو أن يدعونا أحدهم إلى مطعم شواء قريب، أو إلى غرفة مؤجرة في

«فندق الشرق» عند ناصية الشارع، حيث تُجلب الوجبة من المطعم المجاور لقبيلة من الزوار والخطّـــار الطارئين بذريعة الاطمئنان على مريضٍ ما.

بلى. إلى هذه الدرجة، كان الكباب علاجاً لكل الأمراض السارية، وهـــو ما يجعل المريض يهمل كبســـولات الأدويـــة التي يوصفها له الطبيب، أو أن يوزعها على الآخريـــن، حتى لو كانوا يعانون عللاً أخرى بمجرد أن يشمّ رائحة الشـــواء. يروي حمد العربيد أنه شهد في طفولته، أثناء إحدى سنوات الجفاف، أناساً يحفرون ممالك النمل والجرذان للحصول على ما كانت تخزّنه من الحبوب، ومن ثم كانوا يطحنونه ويخبزونه، وقد كان خبز الشـــعير أو الذرة لصناعة أقراص العصيـــدة، أمراً مألوفاً لدى عائلات كثيرة، مـــن دون أدنى تذمّر، وعندما غمر الثلج الأرض ثلاثة أشـــهر متواصلة، فيما عُرف بسنة «السبع ثلجات» مطلع الخمسينيات، نفقت البهائم، ونفد الطحين، ولم يجد بعضهم، كي يبقى على قيد الحياة، ســـوى أن يأكل الجراد، ثم التمر الذي يســـبح فيه الدود، وحين نفد التمر، التفت هؤلاء إلى الجلود المدبوغة، ثم إلى نعال الأحذية.

كان غزو القبائل الأخرى، الاســـم المتداول لفروسية قطّاع الطرق.

أن تقتحم مضارب قوم، وتعود غانماً، وأنت تجرّ ثوراً سميناً، أو فرساً أصيلة، أو سعفة تمر، لتنشبّ إثر ذلك حروب طاحنة، فوق رمال لم تشبعها شهوة الدم، والثأر، عقوداً طويلة.

بـــدو وأكراد ويزيديون فوق خريطة زئبقية، كانت ذات يوم موقع حضارات متعاقبة، من جبل سنجار عند الحدود العراقية إلى ضفاف دجلة والخابور عند الحدود التركية.

ســـيوف وخناجر وبوارید برنـــو، وقتلى بالمئـــات في كل موقعة، وحكايـــات مضخّمة عن خيّال جندل بســـيفه عشـــرين رجلاً، ثم خمســـين رجلاً، إلى أن يصل العدد إلى المئة، فيما بقي سيفه الملطخ بالدماء تتوارثه الأجيال كذكرى. كان زعيم قبيلة الجبور عبد العزيز المسلط، العشيرة التي انتسب إلى أحد أفخاذها وتدعى «الهزيم»، قد بنى قصره في قرية تل براك، في الشـــمال الشرقي لمدينة الحسكة، بعد أن بســـط حدود أراضية من الجنوب المتاخمـــة لحزام نهر الخابور إلى الشمال. تذكر المرويات الشفوية أنه قال لأبنه البكر «اتجه بحصانك نحو الشمال، ولا تتوقف إلى أن يتعب الحصان، هناك ستكون حدود أرضي»، وإذا بها، بعد مســـير ثلاثة أيام، تصل إلى مســـاحة خمسين ألف هكتار، وســـوف ينصحه جمال عبد الناصر الذي التقاه خلال زيارته التاريخية مدينة الحســـكة، أيام الوحدة الســـورية المصرية، أن

يبيع جزءاً من أراضيه الشاسعة، لأنه سوف يصدر قراراً بتأميم المصانع، ومصادرة الأراضي وتوزيعها على الفلاحين، لكن المسلط رفض بشدّة، واكتفى –إثر صدور قانون الإصلاح الزراعي– بمساحة تعادل ربع مساحة أرضه القديمة، وسوف تتحدث المدينة طويلاً عن زيارة جمال عبد الناصر لشيخ عشيرة الجبور، إذ قام بنحر ثلاثمئة خروف أمام موكبه عند مدخل السرادق الذي بناه لاستقبال الزعيم، وأوقد قدوراً تكفي لطهي خمسين كيساً من الأرز. في أمثولةٍ سابقة كان الجنرال الفرنسي مونبليه، قد تلقى منه صفعة غير متوقعه، فحين زاره في مضافته، لامتصاص نقمة العشائر ضد الاحتلال الفرنسي، قدّم له على مائدة الغداء، خبز الشعير واللبن والتمر فقط،، فاستهجن الجنرال فقر الضيافة، وقبل أن يغادر عتبة المضافة، قال له معاتباً «أرجو ألا تكون قد نسيت أنني الجنرال مونبليه ولست ضيفاً عابراً؟». أجابه الشيخ محتداً «ولكن ضرائبكم وجباياتكم لم تبق في بيوتنا غير خبز الشعير واللبن والتمر».

(كان الفرنسيون يصادرون محصول القمح وقطعان الماشية كمؤونة للجيش، من دون أن يجرؤ أحد من الأهالي على منعهم أو مقاومتهم).

في اليوم التالي، وصلت إلى القصر خمس شاحنات محمّلة بأكياس

القمح، هديةً من الجنرال. كما هو متوقع، في حكايات شـــفاهية من هذا النوع، عادت القافلة خائبة، مرفقة برســـالة إلى المسيو مونبليه، تحمـــل عبارة واحدة «لا يحق لكم أيهـــا الجنرال أن تهدونا قمحاً لم تزرعه بلادكـــم». في حكاية أخرى توجه الشـــيخ عبد العزيز إلى العاصمة بناء على اســـتدعاء من حســـني الزعيم، قائد أول انقلاب عسكري في سوريا، كان متوجساً من هذا الجنرال المتعجرف، فقد سبق وأهان كثيرين قبله.

اتفق مع زعماء عشـــائر رافقوه في الوفد، ألا يسمحوا له بإهانتهم، وفي حال زلق لسانه بعبارة تسيء إلى مهابتهم، يقومون بقتله خنقاً، على الفور. ما أن دخلوا مكتبه، حتى بدأ الجنرال تهديداته وصراخه في وجوههم، متوعداً بعقوبة أية عشيرة تتجرأ على عدم منحه شرعية الحكم. نظر عبد العزيز إلى الآخرين لتنفيذ الاتفاق، فأحنوا رؤوسهم نحو الأرض متجاهلين الاتفاق، فما كان منه إلا أن نهض عن كرسيه، وحمله بيديه، وقبل أن يقذفه بوجه الجنرال، أحاطه الحرس ومنعوه من ضربه، فأصدر الجنرال على الفور حكماً بإعدامه، وقبل تنفيذ الحكم بأيام، حدث انقلاب آخر أطاح الجنرال المتعجرف، فنجا الشيخ من الموت بأعجوبة. في حقبة الانفصال، شـــمّ الشيخ عبد العزيز رائحة هواء كتيم وفاسد تعم البلاد، فتوجه إلى أبناء عمومته في العراق، إلى

أن عـــاد إلى البلاد، في منتصف الثمانينات، إثر قرار جمهوري بإعادة الاعتبار إليه.

6

لا أذكرُ بيت الشَـــعر الذي ولدتُ فيـــه ذات خريف، لكنني كلما ذهبتُ إلى الصحراء، ينتابني إحســـاس غامـــض بأن روحي ما تزال هائمة بين تلك الرمال، وكأنني لم أغادرها قط. أتفقد أمكنة خطواتي الأولى، يتنازعني ثغـــاء أغنام، وعواء ذئـــاب، وخفق أجنحة قطا، ورائحة حليب، وطعم مـــاء غدران، وأرواح قتلى دُفنوا على عجل في قبورٍ مجهولة أضاعتها الرمال. مذاق التمر في فمي، وحشرة فرس النبي المنقّطة تمشـــي فوق يدي، تفرد جناحيهـــا وتطير بعيداً. كان طيرانها يعني فألاً حسناً، وكان امتناعها عن الطيران ينطوي على خيبة محققة، كما كان يردد العرّافون. أرغب أن تطير عالياً وبعيداً. أكرر

المحاولة مرّةً تلو المرّة، إلى أن تستجيب إلى ندائي أخيراً، فالتفتُ إلى لعبةٍ أخرى لقتل الضجر.

تعلقُ أشواك العاقول بقدميّ، وأنا أعبث مع قنفذ يتدحرج في الخلاء على شكل كرة شوكية، فيما تعبر طائرة تلمع في الشمس، أضع يدي الصغيرة فوق عينيّ وأتابع عبور هذا الجسم الغريب إلى المجهول.

مواقـــد مطفأة، وبيوت طينية، وعجاج أصفر يمنع رؤية كف اليد في وضح النهار، وأصوات استغاثة، وارتطام براميل ماء فارغة تصفّر فيها الريح. العجـــاج لعنة سماوية أصابت هذه الجغرافيا المنكوبة والمنهوبة والمستباحة، منذ قرون. لا أعلم إلى أية سلالة أنتمي ؟ تدقُ في رأسي سنابك خيل غزاة تعاقبوا على استباحة هذه التلال الخصيبة: بابلييين وآكاديين وأموريين، وســـومريين، وآشـــوريين، وفرس، وإغريق، ورومان، وعثمانيين، وإنجليز، وفرنسيين. هل أتت سلاليتُ مع خيول تيمورلنك من الشـــرق في القرن الثالث عشر، أم مع خيول عياض بن غنم من الجنوب أثناء الفتح الإســـلامي؟ هل كنتُ أسيراً في قبيلة تغلـــب، أم كنتُ محارباً لدى قبيلة قيس، في حروبهما المتعاقبة، وهل قذفتني ريح عاتية من ديار بكر أم من ســـهوب الحجاز؟ لاشك أن واحداً من أجدادي قد صاغ بأزميله تمثال الثور المجنّح الذي اكتشفه عالم الآثار الإنجليزي أوســـتن هنري لا يارد في أول بعثة أثرية تحط

رحالهـــا في موقع تل عربان في العام 1850، التل الذي زارته لاحقاً أجاثا كريســـتي برفقة زوجها عالم الآثار ماكس مالاوان، ووقفت مســـحورة على ضفاف نهر الخابور، تدوّن يومياتها بشغف عن بدو «يباشـــرون الحياة عن كثب، ومن دون تعقيـــد»، ربما كانت هذه الواقعـــة التي ترويها في كتابها «هكـــذا أحيا» تختصر نمط تفكيرهم: «أتت امرأة بدوية تصرخ وتولول، راجية ماكس بأن يتوسط لابنها كي يطلق سراحه من السجن، فسألها ماكس عن سبب سجن ابنها، فقالت بحزم «لقد سجنوه ظلماً..إنه فقط قتل رجلاً». تل عربان هو التل نفسه الذي كنا نعبره على الدوام بنوع من الاضطراب بوجود مخفر للشرطة، فمن هذا المخفر، ومخافر مجاورة، كانت تنطلق دوريات الشـــرطة لتأديب الأهالي، أو لتبليغ أحدهـــم للالتحاق بالجندية، أو للتحقيق بشكوى. كان قدوم دورية شرطة إلى القرية يصيب الأهالي بالفزع بوصفها نذير شؤم وحسب.

الأم التي يُســـتدعى ابنها إلى الجندية، تولول وتندب على صدرها في مناحة، وكأنه ذاهب إلى موتٍ محقق. الجندية تعني الذهاب إلى جبهة الحرب التي لا عودة منها. كانت الجبهة - بالنسبة لنا- اسماً غامضاً من أسماء الفقدان، اسم يتردد في نشرات الأخبار مراراً، ترافقه أغانٍ وطنية حماســـية. هكذا يودع المجندون الأغرار، بيوت القرية، بيتاً،

بيتـــاً، إلى أن يصل الموكب إلى الســـفينة للعبور إلى الضفة الأخرى مـــن النهر، ثم الصعود إلى باص عابر على طريق حلب. كان الجنود يفتتحون رسائلهم الأولى، بعد التحاقهم بقطعهم العسكرية البعيدة، بعتابا مجهولة المصدر تعبّر عن أشواقهم للأهل « الباص عبّه ومشى، ســـكّر علينا البوب/ ســـلام ماعاد يحصـــل، إلا بظرف مكتوب»، وبالطبع ستنتهي الرســـالة بعبارة محددة «نحن بخير، لا ينقصنا سوى مشاهدتكم»، إضافة إلى صورة شخصية باللباس العسكري والبيريه المائلة، ونجوم على الكتف، مستعارة من مستودع استديو التصوير. الصورة ستجد طريقها إلى أحد جدران غرفة الضيوف ببرواز مرتجل، أو تُلصق بالعجين على الجدار مباشرة، إلى جانب صورة لولي مبارك، أو زعيم.

بحقيبة من التنك، ورأس حليقة، وبـــزة من الكاكي الداكن، وصل بشـــير الجاموس فجراً إلى القرية، على دراجة نارية مســـتأجرة من مفرق الطريق العام، فاســـتقبله شقيقه سعود برشقة من الرصاص، ثم تعالت الزغاريد في باحة البيت. أخرج بشـــير من حقيبته كيساً من السكاكر الملوّنة. أفرغ محتوياته في صينية من الألمنيوم، ودار بها على المهنئين. كنا ننصت إلى رجل أتى من كوكب بعيد. شـــخص آخر غير الفتى الغبي الذي اســـتعصى عليه جدول الضرب إلى آخر يوم في

المدرسة الابتدائية، فهجرها باكراً ليعمل مع والده في سرقة الملح من المنجم الحكومي القريب. كان يحكي عن جنود إسرائيليين على بعد أمتار من نقطة الحراسة التي يتبع لها على الجبهة، في معسكر عند تخوم مدينة القنيطرة، ويرسم بغصن شجرة رمّان خرائط وهمية للحرب المقبلة. الحرب التي لم تقع إلى اليوم. وستزداد دهشتنا ونحن نتفرّج على صور التقطها في المعسكر وهو يعتلي دبابة، وأخرى في ساحة المرجة في دمشق.

بعد انفضاض جموع المهنئين من الرجال، أخرج بشير الجاموس من حقيبته صورة لامرأة شقراء فاتنة بصدر بارز، ادّعى بأنها زوجة جنرال قد وقعت بغرامه، وكانت تستدعيه إلى غرفة نومها أثناء المناوبات الليلية لزوجها في ليالٍ مجنونة، تغذيها مخيلّة جندي ريفي أبله. تلك الليلة روى لنا بشير الجاموس مغامراته في دمشق، وكيف ذهب برفقة عسكري آخر إلى «الكرخانة».

كنت سمعت بهذا الاسم بشكلٍ عابر، قبل سنوات، إذ أحدث قرار حكومي بهدم مبنى «الكرخانة» على طريق الحسكة- القامشلي، استياءً عظيماً، واحتجاجات في صفوف المتضررين، لتُستبدل لاحقاً بمخيمات للغجر في المكان نفسه، تؤدي احتياجات العابرين في حفلات هيجان ليلية، يشارك فيها مسؤولون محليون، ومزارعو قمح،

ومهربو أسلحة.

ما إن انتهت إجازة بشـــير الجاموس، وفيما كان يســـتعد للالتحاق بمعسكره، حتى هاجت عتبات البيوت بخبرٍ آخر، فقد وصلت ضحى ذلك اليوم من أيلول، شـــاحنة بثلاث عجلات، عبرت دروباً ترابية متعرّجة لتتوقف أخيراً أمام بيت أسعد الفاضل. كان أسعد قد اختفى منذ سبعة أشهر على الأقل بصحبة السيد كسّار في جولات بين قرى بعيدة، يحيون فيها حفلات ذكر لطرد الأرواح الشـــريرة ممن أصابته علة العشق، أو الحسد، أو الأمراض التي لا شفاء منها،، وكانت آخر الأخبـــار التي وصلت عنه، تفيد بأنه بات أقرب المريدين إلى لســـيد كسّار، بعد أن كسب ثقته المطلقة في كتابة الأحجبة والتمائم السريّة والتعاويذ، لكن وصوله ضحى هـــذا اليوم بصحبة امرأة ترتدي زيّاً غريباً، أقرب إلى لباس الحضريات، نسف صحة تلك الأخبار تماماً. هكذا تسرّبت الوقائع على مراحل إلى أن اكتملت الصورة في أذهان الجميع، فقد اعترف أسعد الفاضل بأنه وقع في غرام «شيرين»، منذ أن لمحها، في كراج أرياف الشمال تنتظر انطلاق الحافلة. كان أسعد يتهيأ للذهاب إلى قرية كردية لإقامة حفلة ذكر هناك، بقصد إخراج عفريت يسكن جسد فتاة شابة، كانت تأتيها نوبات صرع شديدة، وقد استعصت حالتها على الأطباء المحليين، لكنه، في منتصف المسافة

إلى تلك القرية، غيّر مسار رحلته فجأة، وأكمل طريقه إلى المحطة التي نزلت فيها المرأة التي فتنته، وأصابته في مقتل. هكذا أمضى ليلته الأولى كضيف في أول بيت صادفه، وفي ضحى اليوم التالي مشّط أزقة القرية، زقاقاً، زقاقاً، وبوسائله الخاصة كوليّ صالح، تعرّف على مسكن من سيكون اسمها «شيرين». في حمّى عشقه، نسي أسعد الفاضل تعاليم شيخه، ورابط أمام الزقاق الذي تقطنه من زلزلتْ طمأنينته، في بناء طيني شبه مهدّم، يتخلل مدخله بقالية صغيرة، بباب من الداخل، وكان على الزبون أن يقف أمام ثغرة على شكل طاقة في الحائط، يتناول منها حاجياته. فجأة ظهرت الفتاة نفسها بكامل فتنتها الأولى، خلف الطاقة، بعد أن غادرت أمها الدكان. وجد أسعد عملاً في مستودع للأخشاب، يقع قبالة الدكان تماماً، الأمر الذي أتاح أمامه فرصة لتبادل إشارات موحية مع شيرين، ثم تطوّرت العلاقة بينهما إلى كلام مشبوب، وملامسات عابرة، وأبيات عتابا وسويحلي، كان يرددها على مسمعها بصوتٍ محزون، أثناء جلوسه أمام باب المستودع. أتته الفرصة أولاً، حين رافق شيرين بمباركة الأم، إلى الطاحونة التي تقع على كتف نهر صغير. في الطريق، أسمعته أغنية كردية بصوتها، وعندما لم يفهم معناها، ترجمتها إلى العربية كالآتي «في غيابك، كسرتْ العواصف الهوجاء زجاج سراج قلبي

فأطفأته إلى الأبد».

بمرور شـــهر ونصف فقط، تمكّن أسعد العاشق أن يوقد سراج قلب شـــيرين مرةً أخرى، إذ كانت تتســـلل ليلاً إلى المستودع، فتختلط رائحتها برائحة خشـــب الحور، في ملامسات محمومة، فقرر أسعد الفاضل أن يخطف محبوبته ويتزوجها سرّاً، كما يحدث لعاشقين حين تُســـدّ الدروب أمامهما. منذ تلك اللحظة أدار أسعد ظهره للأعمال الروحانية، والتحق طاهياً في مطبخ شـــركة النفط التي بدأت أعمالها على بعد كيلو مترات من القرية، وتمكّن بعد ثلاثة أشـــهر من ترميم غرفة متاخمة لحظيرة أغنام مهجورة، صارت عشـــاً للزوجية، بعيداً عن تدخلات أمه في حياتهما الخاصة. كان أســـعد قد اكتشف طرقاً ســـريّة لتهريب بعض المأكولات والفواكه من مطعم شركة النفط، ثم ملاعق وشوك وســـكاكين كان يربطها بخيط حول خصره، مثل حزامٍ ناسف، أو أن يضعها في جوربيه بحماية جزمة بلاستيكية بعنق طويل، من دون أن يلتقطه أحد من الحرّاس المناوبين في نقطة التفتيش عند السور الخارجي للشـــركة، وكان أسعد يتعمّد نثر قشور الموز والبرتقال أمام بيته لإثارة حسد وغيرة جيرانه من النعيم الذي ترفل به زوجته الغريبة. الزوجة التي ســـرعان ما حققت شعبية واسعة بين النساء بتعليمهن استعمال أحمر الشفاه، وطلاء الأظافر، ونتف العانة

من دون ألم. بمرور ثلاث سنوات وسبعة أشهر من دون أن تنتفخ بطن شيرين بطفلٍ واحد على الأقل، انتشرت شائعات قوية بأن أسعد الفاضل مجرد شخص عنيّن، كعلامة من علامات غضب السيد كسّار على مريده القديم، ثم ازدادت الأمور سوءاً، بعد أن اكتشف أحد حراس شركة النفط، كمية من الحلاوة المسروقة التي خبأها أسعد تحت ثيابه، إذ انتبه الحارس خلال تفتيشه العمال، أن زيتاً يتسرّب من مؤخرة السروال، فأُحيل إلى لجنة إدارية، اقتضت طرده من العمل، وجاء فرار شيرين مع سائق شاحنة، كان يتوقف أحياناً في القرية باعتباره صديقاً لأسعد، نهاية مفجعة لقصة حبٍ عاصفة، ظل أهالي القرية يتذكرونها سنوات طويلة.

سيعود أسعد إلى الواجهة بعد خمسة أعوام، ولكن بشعر يغطيه الشيب وأسنانٍ محطمة، وأسمال بائسة.

بغيابه كل هذه المدة، في مهنة مساعد مهرّب أغنام بين سوريا والخليج، لم يتمكّن أسعد الفاضل من توفير مبلغ يكفي مهراً لأرملة، في أبعد تقدير، وبعد نقاشاتٍ صاخبة بين أصدقائه القدامى، أشار عايد الواوي الذي كان يعمل عتّالاً في ضواحي العاصمة، بأن المهور في قرى الجنوب السوري لا تتجاوز ربع قيمة المهور بين العشائر المحلية، ثم غمز بأن النساء هناك لديهن خبرة أفضل في الفراش.

في الواقع، كانت المشكلة تكمن في كيفية إقناع أي امرأة في العالم، مهما كانت دميمة بعريس محطّم مثل أسعد الفاضل، ليس لديه فراش للنوم في الأصل. قبل مغادرة الوفد بليلة واحدة، إلى تلك القرية المجهولة، تبرّع عم العريس مرغماً بطقم أسنانه مؤقتاً لأبن أخيه الضال، وبعد محاولات عدة، استقر طقم الأسنان في مكانه الجديد، كما أهداه آخر جلابية بيضاء وعقالاً، وثالث جلب له حذاءً مستعملاً، وجوارب مخططة، وحضر حلّاق محلي لتشذيب شاربيه وصبغهما بلون أسود فاحم، كما رشوا شعر رأسه بمبيد حشرات تجنباً لحكة لازمته منذ عودته. لم يعد الوفد خائباً، بل حقق انتصاراً، لم يتوقعه أحد، نسبة لندرة مزايا العريس.

كانت العروس امرأة أربعينية مطلّقة، بأرداف ممتلئة، ونظرة لبوة، كما لم يخيّب أسعد آمال أصدقائه الذين سهروا إلى ساعات الفجر الأولى للاطمئنان على فحولته، إذ أطلقت العروس بعد دقائق من إطفاء النور في الغرفة، تأوهات وصرخات متلاحقة، تؤكد نجاعة الوصفة التي اخترعها الملّا سراج العمري لمحاربة العنانة القديمة التي أصابت العريس، وهي مزيج من أعشاب بريـة، وعظام خفاش، ومسحوق السمسم، وبذور القرع.

في الصباح الباكر تسلل أسعد إلى بيت الملّا واعترف أمامه بأن

الوصفة لم تعد إليه فحولته، وبأن التأوهات الليلية، كانت مجرد حيلة، كي لا يراق ماء وجهه أمام أصدقائه الذين كانوا ينتظرون علامات فحولتـــه تحت النوافذ، فنصحه الملا بعد تفكير بتناول ثلاث ملاعق من حساء ســـلحفاة مسلوقة على الريق مباشرة. الوصفة الجديدة لم تفـــده على الإطلاق، على العكس تمامـــاً، إذ أصابته في اليوم التالي لتناوله الحساء حمّى شديدة، وبدا انه يحتضر.

كان على الملّا سراج العمري الذي أنهكته سنواته السبعون، أن يخترع وصفةً ثالثة لأسعد الفاضل نفسه، ذلك أن الحكة التي أصابته في جلدة رأســـه، عاودته مرةً أخرى، بعد شهرٍ واحد من زواجه. فحص الملّا البثور المنتشرة على جلدة رأس المريض، ثم أمر بإعداد مزيج من روث البقر الطري، وعصير رب البندورة، على شكل فطيرة، على أن توضع فوق رأس المريض، مدة أســـبوعٍ كامل، من دون أن تتعرض للهواء، لكن صحة «أســـعد أبو الزبل»، كما كان يُلقَب سرّاً، لم تكن على ما يرام، إذ انتشرت البثور والدمامل الصغيرة على امتداد جسمه، بما يشبه الجرب، ومات بعد أشهر، صبيحة يوم صيفي مغبر، وتم دفنه في مقبرة مســـتحدثة عند الهضاب الشرقية للقرية، بعد أن ضاقت المقبرة القديمة بموتاها، من دون أن ينجب ولياً للعهد، كما كان يأمل.

زوجته حورية الحســـن دفنت أحزانها على بعد خمسمئة متر من عتبة

بيتها، هي المسافة التي رافقت بها جنازة زوجها، ثم عادت إلى حياتها الطبيعية، في تطريز أغطية المخدات برسوم طيور وفراشات وأزهار، وعبـــارات حبّ جامحة، وحياكة المفارش الملونة من بقايا الأقمشـــة المستعملة في مثلثات متجاورة، وقد راجت بضاعتها بين أهالي القرية والقرى المجاورة، الأمر الذي شـــجعها على افتتاح اســـتراحة على الطريق العام الذي شقته آليات شركة النفط، في الجهة الشرقية للقرية، لبيع بضاعتها، بالإضافة إلى المثلجات، والتبغ، والبنزين المهرّب الذي كان يزودها به ســـائق جيب يعمل في شركة النفط، مقابل نسبة من الأرباح. كانت اســـتراحة حورية المبنية من القصب وبقايا التوتياء والكرتون المقوّى، مكاناً للعاطلين عن العمل، وســـائقي الشاحنات العابرة، والغرباء، والمرضى الذين ينتظرون حافلة تقلهم إلى المدينة، ما جعل الإشاعات تطارد سمعتها، خصوصاً بأنها باتت تدخن السجائر بشراهة، غير مكترثة بالتعليقات التي تطنُّ في أذنيها، ليل نهار.

عايد الواوي صديق المرحـــوم، عرض عليها الزواج بحجة إطفاء نار الشـــائعات، لكنها رفضت بشدة، وهو ما أكد، حسب أقواله، بأنها تقيم علاقات محرّمة مع ســـائقي شركة النفط، في الركن الخلفي من الاســـتراحة، منهياً أقواله بمثل شـــائع «لو كان فيها خير ما رماها الطير».

لو لم يطأ فجأة رجل يدعى طمّـــاس الدحام الجبوري، عتبة مضافة دعبول النوّاف، مســـاء يوم ملتهب مـــن آب، ويضع عقاله في عنقه فور دخوله، في إشـــارة إلى أنه لاجـــئ إلى القبيلة ويطلب الحماية، لبقيت حورية الحســـن مضغة في الأفـــواه، فترة أطول، لكن حكاية هذا الرجل، أنســـت الجميع الإشـــاعات التي تحوم حول هذه اللبوة المســـعورة. كان طمّاس في رحلة صيد للصقور عند ســـفوح جبل ســـنجار، عندما نشبت مشـــادة مع صيادين آخرين حول صقر من النوع النادر والثمين، أدّعوا أنهم كانوا يطاردونه منذ ثلاثة أســـابيع، فما كان من طمّـــاس إلى أن أردى أحدهم قتيلاً. إثر هذه الحادثة، اضطرّ إلى الفـــرار إلى أبناء عمومته طلباًاللجوء. بعد أن أنصت إلى حكايته بإمعان، دقّ دعبول النوّاف على صدره، معلناً موافقته على حماية الرجل، وطلب منه إعادة وضع عقاله فوق كوفيته، وأمر بذبح خروف للضيف. بعد أيام وصلت عائلة «طمّاس اللافي» حسب اسمه الجديد، إلى القرية. ثم التحقت بالعائلة قافلة جمال. كان منظر الإبل غريبـــاً في قرية زراعية مثل قرية الرشـــيدية، لكن الأهالي اعتادوا أن يشاهدوا الابنة الوحيدة لطماس اللافي، وتدعى «مزنة»، وهي تسوق الجمال صباح كل يوم نحو الصحراء. بعد أن اســـتقر المقام باللافي، واطمأنّ أن أحداً من طـــلاب الثأر، لم يقتفِ أثره، قرر إقامة وليمة

كـــبرى في بيته الجديد بنحر جمل. أثار منظر نحر الجمل فزع كل من شـــاهده، خصوصاً بأن عملية الذبح، تحتاج إلى طقوس مختلفة عن ذبح خروف أو حتى ثور، ذلك أن الجمل، كما كان يحذّر بعضهم، ســـيغدر بمن يحاول نحره، في حال أحسّ بالأمر، فكان على طمّاس أن يخفي الســـاطور وراء ظهره، وهو يتقدم من عنق الجمل. هكذا جرّ الرجال الجمـــل إلى باحة البيت، ثم أناخوه أرضاً، وربطوا فكيه أولاً، ثم ربطوا قائمتيه الأماميتين بحبل متين، وربطوا قائمتيه الخلفيتين بحبلٍ آخر، وعقدوا الحبل عند ســـنامه، ليتم تكتيفه جيداً، خشـــية أن يحاول النهوض لحظة النحر ويهجم على من ســـوف يهمّ بذبحه. أدار أحدهم عنق الجمل إلى جهة القبلة. تقدّم طماس بحذر نحو عنق الجمل وعاجله بضربة من ســـاطوره، في منتصف الحنجرة، وابتعد، فانبثقت نافورة مـــن الدماء، راح الجمل يتخبط بها، محاولاً النهوض والاستغاثة، من دون جدوى، إلى أن همد أخيراً. لن أنسى هذا المنظر إلى اليوم، فكلما لمحتُ جملاً، من نافذة حافلة تعبر الصحراء، أخشى أن يثأر مني انتقاماً لتلك الحادثة القديمة، لكنني سأستعيد ببهجة طعم حليب النوق، بطاسة من النحاس، من يد مزنة اللافي.

ما أن تنتهي عاصفة العجاج، حتى تتكشـــف عتبات البيوت الطينية عـــن وجوه كالحة وعيون أصابها الرمـــد. يتفقد الأهالي دوابهم التي

قد يكون تاه بعضها في العتمـــة، أو اختلطت بقطعان أخرى. كان ضرورياً أن يوســـم أصحاب المواشي أغنامهم بمغر من لون مختلف. اختار والدي مغراً برتقالياً، لتمييز قطيع أغنامه عن سواها، بعد جز صوفها وجمعه في أكياس من الخيش، اســـتعداداً لبيعه في المدينة، أو من أجل اســـتعماله في صناعة لبّادة جديدة، خاصة بغرفة الضيوف. كان فقـــدان بقرة في عاصفة، أو غرقها في النهر، أمراً مأســـاوياً لا يُحتمل، فأن يموت شـــخص ما، فهذا قدره المحتوم ويومه الموعود، إذ لكل كائن بشـــري ســـاعته المكتوبة في دفتر السماء، أما فقدان بقرة، أو حصان، أو خروف، فهذا يعني لعنة مؤكدة تطارد أصحاب البيت بسبب غضبٍ إلهي، أو نتيجةً لعدم إيفاء نذر، أو أن أحداً ما، قد أودع ســـحراً شيطانياً في ركنٍ من أركان البيت، وينبغي إبطال مفعوله، وإلا ما تفسير أن يموت ثلاثة من أطفال شهاب الفرج، بعد ســـبعين يوماً على ولادة كلٍ منهم، في الساعة نفسها، ولا تنجو من هذا القدر إلا البنات؟ يعيد حمد العربيد الســـبب إلى قتل الأفعى التي كانت تبارك البيت وتحرســـه من الأرواح الشـــرّيرة، صبيحة ولادة زوجة شهاب طفلها الأول.

الجمال الخارق الذي منحه الله لشمســـة الفرحان، لم يحمها من لعنة العنوســـة، أو لعله كان ســـبباً في محنتها، ففي ليلة عرســـها الأول،

أُصيب عريســـها برصاصة في دماغه، أطلقها أحدهم ابتهاجاً، لحظة دخوله إلى مخدعه، وحين غامر سلمان المهداوي، أحد فرسان عشيرة البومانع بالتقدم إلى خطبتها، وافق والدها شـــرط أن تكون الفرس الصقلاويـــة التي ورثها عن والده، جزءاً من المهر، لكن العريس وقع عن ظهر فرسه، واصطدم رأسه بصخرة ناتئة، فمات على الفور، قبل أربعة أيام فقط من موعد عرسه، أما زوجها الثالث مشعل الدهام، فلم يلقِ بالاً للنصائح والتحذيرات التي سمعها بعدم الاقتران بهذه المرأة الملعونة.

كان شـــاهدها مرةً واحدة تسبح في نهر الخابور، ولمح من مخبئه وراء أشـــجار الطرفاء، بريق الفضة في ساقيها، ومفرق صدرها، من تحت ثوبها المبلل بالماء، فظل هذا المشـــهد يطارده في مناماته. كانت شمسة تـــأتي في المنام بهيئة غزالة، تخلع جلدها عند الشـــاطئ، وإذا بها أنثى ساحرة بشـــعرٍ طويل يغطي أردافها، تخوض في الماء، ثم تلتفت نحو مشعل، وقبل أن تغطس في الماء، تقبض بأصابعها على حلمتي ثدييها، وتقول «إليكَ حليبي».

حين روى الحلم للملّا، أحسّ هذا بالجزع، ثم قال بنبرة تحذير «هذه لعنة دم تطاردك، أو تطارد أحداً من أســـلافك، يجب أن يسيل دم غزالة، ما يكفي لدائرة حول فراشك». لم ينصت مشعل الدهام إلى

تفسير الملّا، فما كان إلا أن توقّف قلبه عن الخفقان في ليلة عرسه أيضاً، بمجرد أن خلع ثوب العروس المقصّب، ورآها عاريةً تماماً.

هل تهيأ ت له على شكل غزالة، فأحس بالاضطراب والرجفة؟ كانت عيناه، قبل إغفاءتهما الأخيرة، شاخصتين نحو حلمتي ثدييها، وقد بدأ يهذي بعبارات غامضة. حاولت شمسة الفرحان أن توقظه برش الماء المعطّر على وجهه، لكنه كان قد فارق الحياة على الفور، فاضطرت إلى ارتداء ثيابها مرةً أخرى، والخروج من الغرفة طلباً للنجدة.

كان قدر مشعل الدهام أن يغتسل مرتين في يومٍ واحد، قبل أن يُدفن إلى الأبد.

هكذا باتت لعنة شمسة الفرحان كابوساً يطارد كل الفتيات المقبلات على الزواج، حتى أن اسمها كان يتردد في أغاني الفلاحات في حقول القطن، باعتباره صورة لصاحبة الحظ العاثر.

(اعتادت شمسة الفرحان أن تخصص الخميس الأول من كل شهر لزيارة قبر عريسها الأول، والخميس الثاني لزيارة قبر عريسها الثاني، والخميس الثالث لزيارة قبر عريسها الثالث، وفي الخميس الرابع، تُخرج ثوب عرسها من خزانة قديمة. ترتدي كامل زينتها، وتجلس أمام مرآة خزانتها، صامتةً كالموتى، إلى أن تبزغ شمس اليوم التالي. بعد موتها، لم تغيّر

عاداتها،إذ يروى أن طيفهـــا كان يتجوّل في المقبرة على هيئة غزالة، لزيارة عرســـانها، و أن آثار أظلاف غزالة محفورة عند أطراف تلك القبور).

فجأة تحوّلت البوسطة التي يمتلكها دويك العبود إلى خردة.

م تنقذها كافة محـــاولات الإصلاح المعتادة، ولا ابتهالات الركاب، ولا العبارة المكتوبة قبالة مقود الســـائق «سيري فعين الله ترعاكِ»، فكان علينا أن نعود إلى قطع المســـافة الطويلة إلى الطريق العام مشياً على الأقدام، عائدين من إجازة مدرســـية إلى مدينة الحســـكة، أو «الحسجة»، كما يلفظها الســـكان المحليون، وفقاً لاسمها التركي الذي يعـــني الأرض المغمورة بالمـــاء، أو «ميزوبوتاميا» تبعاً لاسمها الإغريقي القديم، أو أرض المنفيين، إذ لطالما كانت حكومة الانتداب الفرنســـي، تتخلص من الوطنيين، الذين كانوا يعارضون سياساتها الاســـتعمارية، بنفيهم إلى هذه المدينة المهملة، كأبعد نقطة في البلاد عن العاصمة، وسوف تبقى هذه الصورة ماثلة في أذهان الحكومات المتعاقبـــة على هذه الأرض المنهوبة، لكن مغامرين جدداً، وجدوا في هذا المكان فرصة لتجميع الثروات والكنوز المدفونة تحت التراب، إذ تقبع تحت تلالها الألف، المكتشفة حتى الآن، كنوز حضارات قديمة، لا تحتـــاج إلى حفريات كثيرة، فقد كانت قبور الموتى تختلط بأرواح

تماثيل الآلهة، بضربة معول واحدة. هكذا قاد أحد البدو، عالم الآثار الألماني ماكس فون أوبنهايم في العام 1929، إلى بقايا أعظم وأقدم حضارة شهدتها المنطقة، فبينما كان هذا البدوي منهمكاً في حفر قبرٍ لأحد موتاه، اصطدم معوله فجأة بجسم صلب. توقّف عن الحفر. أزاح التراب بيديه عن هذا الجسم الغريب، وحين توضّحت أمام عينيه، معالم «الصنم» ولّى هارباً، خشية أن تكون المقبرة مسكونة بالأرواح الملعونة، ليتكشّف لاحقاً عن تمثال لإله آرامي برأس آدمي وجسم ثور مجنّح. لم يكن هذا التمثال سوى الطبقة الأولى من الكنوز المدفونة في مدينة مزدهرة، كانت قائمة منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد، هي مدينة تل حلف. هذا التمثال يزيّن اليوم واجهة متحف برلين، إلى جانب عشرات اللقى الأثرية الأخرى من الفخار والخزف والبازلت، فقد نهب الأثري الألماني هذه الكنوز النفيسة، على متن ثلاث عشرة عربة قطار وشحنها إلى حلب، ثم إلى برلين، فهدأت أرواح الموتى في المقبرة إلى الأبد.

في متحف حلب الذي يضم ما تبقى من آثار تل حلف المنهوبة، سأتوقفُ طويلاً أمام تمثال غرائبي. تمثال منحوت من البازلت لرأس إنسان، وصدر طائر، وجسم عقرب! تُرى ما الذي كان يدور في ذهن هذا النّحات المجهول، وهو يجمع هذه الكائنات المتنافرة في

كتلةٍ واحدة؟ لكنني حين استعيد مخيّلة أولئك النحّاتين الذين عاشوا في أحضان أساطير الحضارات المتعاقبة في هذه المنطقة. الأساطير التي لا يتردد رواتها في اختراع المعجزات، لن أستغرب كثيراً جموح أزاميلهم في استنطاق الحجر، فعلى بعد خطوات يرقد تمثال آخر لحيوان أسطوري يعزف على آلة موسيقية، وستحضرني حكايات مشابهة بوصفها وقائع مؤكدة، كأن يستعيد الأعمى بصره بلمسة يد من محبوبته.

على بعد خمسة عشر كيلو متراً من تل حلف، وصل ذات ظهيرة من العام 1932، مغامران يعود أصلهما إلى ديار بكر، عند الحدود التركية السورية، هما مسعود أصفر، وإلياس نجار، إلى مدينة رأس العين، منبع نهر الخابور،اشتريا أرضاً جرداء من بقايا الأملاك العثمانية تقع شمال خط المطر، ثم استصلحاها، ليكونا أول مزارعين للقطن في المنطقة.

لم يكن البدو بالطبع، على علاقة متينة بالزراعة، إذا لم نقل ينظرون إليها بازدراء وتطيّر (**أحدهم استبدل حماراً بثلاثين هكتاراً على ضفاف النهر**)، لكن ما أن رأوا الشجيرات الخضراء تنمو وتتفتح على شكل أجراس بيضاء تشبه ندف الثلج، حتى انتبهوا إلى أهمية ما يقوم به هذان الإفرنجيان غريبي الأطوار، وستكتمل الأعجوبة

بوصول شـــخص لبناني يدعى الخواجة شاهين معلوف برفقة جرار زراعي، ماركة كيز، وسكة للفلاحة، وحصادة آلية تعمل من تلقاء نفســـها، على فرز القمح عن التبن، بدلاً من تلك القديمة التي كانت تجرهـــا الخيول، ثم أضافا إلى محاصيلهم، زراعـــة الأرز. الزراعة التي لم تكن معروفة في البلاد على الإطلاق، ثم اســـتكملا مشـــروعهما بأعجوبة ثالثة هي زراعة البطاطا.

بعد أقل من ثلاث ســـنوات، بدأت أطنان القطن تُرسل بالشاحنات إلى محلجة حلـــب، فيما كانت مخازن القمح تكفـــي حاجة البلاد كلها، لكن اســـتيلاء حزب البعث على الســـلطة في آذار 1963، وإصداره قرارات اشـــتراكية تقضي بتوزيع الأراضي على الفلاحين، في ما سمي قانون الانتفـــاع، أو قانون الإصلاح الزراعي، أو محاربة الإقطاع، أطاحت هذه التجربة من جذورها، فاضطرت عائلتا أصفر ونجّار، بعد إجهاض حلمهما، إلى مغادرة الجزيرة إلى المملكة العربية السعودية، ليحوّلا صحراء الحجاز إلى جنة من الذهب الأصفر.

هذه أرض اللعنات؟ قالها حمد العربيد بحذر، أثناء محاولته، مع رجال آخرين، إنقاذ بقرة ابتلعها تيار الماء الجارف بقوة فيضان النهر، ثم تمتم بآية الكرسي، وهو يدوس بقدميه الحافيتين، من دون أن ينتبه، فوق أفعى لفظتها المياه للتو.

7

أرض العجاج والفيضانات والشمس التي تذيب الإسفلت.

أرض السراب والمحل والأمراض السارية.

أرض الغرباء الذين أتوا من كل الجهات مثل الجراد، بعد أن اخترع بعضهم، بتواطؤ موظفين فاسدين، قيوداً تثبت أنهم من مواليد المنطقة، بقصد الحصول على غنائم حكومية من أراضي أملاك الدولة. آخرون حصلوا على وظائف في شركة النفط بامتيازات، لا تحققها الوظائف الحكومية العادية، فيما كان أبناء الأرياف المحيطة بموقع الشركة، يدفعون أتاوات باهظة مقابل حصولهم على وظيفة سائق، أو مستخدم، أو عامل حفر في أعماق الصحراء.

هكذا هجر الفلاحون أراضيهم والتحقوا بجنة شركة النفط، يعدّون أيام الأسبوع وفقاً لنوعية الوجبات التي تقدمها الشركة، فالأحد يعني يوم الدجاج، والثلاثاء يوم الخراف، والجمعة يوم الموز.

تحت أنقاض الثكنة العسكرية التي بناها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، على تلّةٍ مرتفعة ترقد على ضفة نهر الخابور، في الجانب الشرقي من المدينة، تئنُّ عظام الموتى في مدينة خرّبها زلزال مدمّر، قبل ثلاثة قرون، فأقفرت تماماً من الحياة، إلى أن انحدرت طلائع قبيلتي ربيعة وتغلب من الشمال، في مطلع القرن الثامن عشر، ثم سريان وكلدان وآشوريين، ثم قوافل الأرمن الناجين من مذبحة 1914، وبدو، وأكراد، ويزيديين.

كانت باحة مدرسة أبي تمام مهرجاناً صاخباً للغات ولهجات مختلطة، على رغم وجود قرارات حكومية صارمة بعدم استعمال أية لغة، عدا العربية، وسنردد النشيد الوطني وتحية العلم كالببغاوات، وسنتعرّف بخبرات بسيطة على تواريخ مضمرة لسلالات وأقوام، وإثنيات، عبرت جبال سنجار وكوكب وعبد العزيز، لتستقر على ضفتي نهر الخابور، وسيعبر الزمن الهوينى بين كارثة وأخرى، وبين انقلاب وآخر، في هذه المدينة المبنية من الطين والحجارة والأدعية.

كان فيّاض أشـــهر بائع صحف متجوّل في المدينة، يستيقظ باكراً، ليســـمع نشـــرة أخبار اليوم من المذياع، ثم يخترع حوادث وجرائم شرف وحروباً وشيكة وانقلابات عسكرية، لعناوين صحف الأمس التي تصل إلى المدينة متأخـــرة، يوماً واحداً على الأقل، لذلك كان مســـتحيلاً، أن ترى أحدهم في مقهى، يقـــرأ صحف العاصمة في موعدها. كأن مســـافة الســـبعمائة كيلو متر، تلك التي تفصل بين هذه المدينة والعاصمة، هي نفســـها التي تحرث الوقت في شـــوارع المدينة وقراها المنســـيّة، بسكة صدئة، وثيران هزيلة، ومعجزات إلهية مؤجلة.

كان علينا، نحن أبناء العشائر، أن نعيش بحذر ومخاوف غامضة، إثر كل حادثة ثأر تقع، هنا أوهناك، ذلك أن خنجر الانتقام ستظل مسلولة، مدة أربعين عاماً إلى أن تنطفئ شـــهوة الدم. سيتعرّف أحدهم على طمّاس اللافي، في ســـوق الماشية، رغم نحوله وتغيّر قسمات وجهه، ولن تخطئه الرصاصات الثلاث من مســـدس شـــايش التزال، حفيد القتيل في حادثة صيد الصقور. الحفيد الذي انتظر هذه اللحظة، ستة عشـــر عاماً، وثلاثة أشهر، وأحد عشر يوماً، كأنها ملح فوق إصبعه المجروحة، وفقاً لاعترافاته في محضر تحقيق الشرطة بالحادثة.

استلمت مزنة اللافي جثة أبيها بصمت. لم تذرف دمعة واحدة، و لم

تتقبـــل التعازي بالطبع، ذلك إنها قررت الانتقام من القاتل بمجرد أن وصلها الخبر المشؤوم.

بعد أيـــام باعت آخر ناقة وآخر بعير تركهما والدها، لتاجر بدوي من تدمر. نفضـــت الغبار عن بندقية أبيهـــا المعلّقة وراء باب غرفة الضيوف، ووضعتها أمام أنف زوجها متعب الموســـى، ثم أقسمت إن لم تجد رجلاً يثأر لدم أبيها، ســـتنتقم من الجاني بنفســـها. تقبّل زوجها الاهانة من دون اعتراض. غمغم بكلام غير مفهوم، وهو يمج سيجارته اللف، ونهض مبتعداً نحو الخلاء.

أدركت مزنة بأن زوجها ليس أكثر من فزّاعة طيور لاتخشاها حتى عصافير الدوري، وحدّثت نفسها بصوتٍ عال «كان عليّ أن أعرف بأنني تزوجت ذكر عنكبوت منذ الليلة الأولى لعرسي».

في الصباح التالي، اســـتيقظ متعب الموســـى، وهو يشعر بوهن في أضلاعـــه وجفاف في بلعومه، إثر كابـــوس داهمه طوال الليل (**كان هناك من يطارده في المنام**). لم يجد مزنة في الغرفة، ولا في الحظيرة، ولا أمام التنّور. وضع يده على فتحة التنّور فوجد ملمسه بارداً، فتح صندوق ملابسها. الصندوق الذي تضع فيه حاجياتها الثمينة، فأدرك أن مزنة غادرت القرية كلها. حاول أن يتكتّم على غيابها، على أمل أن تعود قبل الغروب، لكن الخبر انتشر بسرعة: مزنة عبرت الحدود

إلى العراق، كي تطلب النجدة من أبناء عمومة بعيدين، يقطنون عند تخوم جبل سنجار، ومنذ ذلك الصباح اختفت أخبارها.

سوف يهبُّ هواء مزنة اللافي على تخوم قرية الرشيدية بعد سنوات، محمّلاً برائحة مطر وشـــيك وعطر سلماس وبطم، عن طريق شاعر ربابة جوّال، إذ سيرد اسمها في متن بيت عتابا بوصفها شيخة عشيرة تبز الرجال بسطوتها وحنكتها وفروســـيتها، ووفقاً لما رواه الشاعر الجوّال، فإن مزنة اللافي قد تمكّنت من لم شـــتات عشيرتها واستلمت المشيّخة عند حدود جبل سنجار، منذ أن أدارت رأس أول خروف إلى جهة القبلة، ونحرته على مرأى من رجال العشيرة، خلافاً للعادات والأعـــراف، ثم ارتدت شماخاً وعقالاً، وأقســـمت أنها لن تخلع هذا الزي إلى أن تنتقم لدم أبيها المغدور.

في ســـوق الماشـــية، انتبه الدلّالون إلى تاجر إبل مريب، كان ملثماً على الدوام بكوفية ســـوداء، وعباءة من شـــعر الماعز، بصحبة فتى هزيل، يقوم بمهمة المســـاومة على أثمان الجمال، بعد مشاورة الرجل الملثـــم. لم يكن هذا التاجر الغامض يتحدث مع أحد طوال وجوده في مقهى الســـوق، حتى إن التجار اعتقـــدوا أنه أبكم. لم يكن لهذا التاجر اســـم آخر غير مزنة اللافي نفســـها، فقد سمعت بأن صيادي الصقور يتـــرددون على هذا المقهى لعقد صفقات مع تجّار خليجيين

ولبنانيين، وحسب فطنتها ودرايتها بتحركات هؤلاء الصيادين، فإن قتلة أبيها سيترددون إلى هذا المكان، وستتعرف إلى أحدهم بإشارة ما، أو حديثٍ عابر يتعلّق بصيد الصقور. في القصيدة التي أوردها شاعر الربابة الجوّال، هناك إشارة إلى براعة مزنة اللافي في الكمائن التي تعدها للصقور، وقدرتها على الصبر ليالٍ طويلة في الصحراء. وحده متعب الموسى كان يفكّر بالفتى الهزيل الذي كان يرافق زوجته السابقة، هل هو ابنه؟ بحسابات بسيطة تتعلق بفترة اختفاء زوجته، قدّر أن الفتى في الثانية عشرة، وإذا كانت الأقدار تنطوي على أملٍ ما، فإنه لاشك قد بذر جنيناً في رحمها، قبل اختفاءها مباشرةً، ولكن ما اسم ولده المجهول؟

سيسلك هذا الرجل المحزون الطريق نفسه الذي سلكته مزنة اللافي ذات صيفٍ ملتهب، باتجاه سفوح جبل سنجار، بحثاً عن ابنه، بعد أن تردد طويلاً إلى سوق الماشية من دون أن يعثر على عائلته المفقودة. ربما كان شعراء الربابة بحاجة إلى أساطير وأبطال وهميين كي تنقذ أشعارهم من الموت، ذلك إن متعب الموسى عاد خائباً بعد رحلة طويلة في الصحراء، لا تخلو من مجازفة، ولعل عودته الأخيرة، كانت ضرورية كي يروي هو الآخر حكايته، قبل ليلة واحدة من موته بلسعة أفعى، تسلّلت إلى فراشه.

كان دويك العبود يستعيد شبابه الآفل، في ملهى يسرى البدوية في حلب، بصحبة مزارعي قطن وتجّار حبوب، استلموا مستحقاتهم من المصرف الزراعي للتو، في هرطقات نشوة ريفية، يعبّرون خلالها عن إعجابهم بالمغنيّة الغجرية، وذلك بإشعال سيجارة الراقصة بأوراق نقدية من فئة الخمسمئة ليرة، وإلقاء الكوفيات والعُقل على خشبة المسرح، من فرط النشوة، ثم يسترجعونها في نهاية النمرة مقابل مبالغ يُتفق عليها، مرفقة بصور تذكارية مع المغنيّة المشهورة.

صباح اليوم التالي، في مقهى يقع قبالة القلعة، التقى دويك العبود رجلاً، أحيا لديه شكوكاً قديمة بثأر مؤجل، فبعد أن تعرّف على أصوله، وإلى أي عشيرة ينتمي، سأله الرجل بإلحاح عن شخص محدد، اسمه ذياب الفرج، كان قد ارتكب جريمة قتل بحق مزارع حموي، من أولئك الذين أتوا المنطقة في منتصف الخمسينيات لاستثمار الأراضي الشاسعة في الجزيرة السورية (**سبق ووردت مقدمات هذه الحكاية على لسان ابن عم القاتل، المدعو نهار الفرج، من دون تفاصيل**). شمّ دويك العبود رائحة دم قديم، لم يجف تحت التراب، رغم مرور نحو عشرين عاماً على تلك الحادثة المشؤومة، فقرر أن يعود على الفور إلى القرية، ويخبر وجهاء العشيرة بما حدث معه في حلب. كان للخبر وقع الصاعقة على الجميع، وانتهوا بعد

مداولات طويلة إلى اتفاق يقضي بدفع «ديّة» لأهل القتيل تتوزعها أفخاذ العشيرة وبطونها بالتساوي لطي هذه الصفحة إلى الأبد.

كان ذياب الفرج قد وقع في غرام مريم الهلوش، أجمل نساء عربان، وسبق ووقف في طريق أكثر من عريس محتمل، لكن حادثة غير متوقعة، غيّرت مجرى حياته تماماً. في ضحى يوم خريفي بعيد، وفيما كان ممدوح الحموي يتفقد العمل في «المصلحة» التي كان يشرف عليها ذياب الفرج، تعمّد إهانة وكيله أمام عاملات ركش القطن، وكان بينهن مريم الهلوش. مضغ ذياب الإهانة على مضض، لكن ممدوح الحموي لم يتوقف عند هذا الحدّ، بل انهال ضرباً على رأس ذياب بعصاً من الخيزران، إمعاناً في أهانته أمام مريم، بعد أن تأججت رغباته في امتلاكها، وحين حاول ذياب الدفاع عن نفسه، هجم ممدوح نحوه وبطحه في أرض الساقية الموحلة، ثم ملأ فمه بالطين الممزوج ببوله، وغادر إلى بيته على كتف النهر.

أحسّ ذياب الفرج بأن الأرض تميد تحت قدميه. ألقى نظرة غائمة نحو مريم التي كانت تنفض التراب عن ثيابه، ثم نهض كالمجنون، وركض باتجاه القرية. دخل بيته مبللاً بعرق الذّل، بعثر نضيدة الفرش، واستل بندقية، كانت مخبأة بين طبقات الملاحف، من دون أن يجيب عن أسئلة والدته التي أُصيبت بالهلع لمنظر وحيدها، وخرج راكضاً.

امتطـــى حصان علـــي العبد، واتجه إلى جرف النهـــر. كان ممدوح الحمـــوي غارقاً في قيلولة مضطربة تحت الشـــبّاك الغربي لبيته الذي يطل على كتف النهر مباشرة. مدّ ذياب سبطانة البندقية من الشباك وأيقظ النائم بحركات متتالية بمقدمة بندقيته، وحين فتح ممدوح عينيه، وجد نفســـه أمام مشهد لم يتوقعه على الإطلاق، صرخ بوجه ذياب مهدداً، لكن هذا المشـــهد لم يتجاوز أكثر من دقيقة واحدة، تخللها لاحقاً، اســـتعطاف كاذب نطق به ممدوح بحشرجة: بصق ذياب في وجه غريمه، وقال جملة واحـــدة «ماعاش الذي يهين أخو ختلة» ثم أطلق ثلاث رصاصات في صدره، وتركه يسبح بدمه مثل ثورٍ هائج. قفز على ظهر حصانه، واتجه إلى البريّة. ما إن انتشر خبر مقتل ممدوح الحموي في القرية، ثم المخفر في الضفة الثانية من النهر، حتى توافدت دوريات الشـــرطة من مخفر عجاجة. دوريـــات راجلة وأخرى من الخيّالة، وثالثة في سيارة جيب، يقودها رئيس المخفر شخصياً. لم يبق مكان في القرية من دون تفتيش: الزرائب، ومخازن الحبوب، وغرف المؤونة، والآبار المهجورة، والمطابخ، وأســـطح البيوت. وحين خيّم الظلام على المكان، حملوا المصابيح يجوبون الحقول وشـــاطئ النهر، والمقـــبرة. في الصباح التالي بدأت حفلة تعذيب جماعية لرجال القرية في ســـاحة مكشوفة، إذ أمر رئيس المخفر بأن يستلقوا تحت الشمس

بوضعية المصلوبين، وقد وضع أحجاراً صغيرة فوق أيديهم وجباههم، وهدد رئيس المخفر بصوتٍ جهوري، يليق بمن يقود معركة حياة أو موت، بأنه سيحرق القرية عن بكرة أبيها، إذا لم يحضر هذا الكلب في صباح الغد، كما نبّه إلى أن سقوط أية حجرة عن جبين أحد ما، ستعرّض صاحبها لعقابٍ أشد، وهو يلوّح بسوطه في الهواء.

ثلاثة أيام من الجحيم عاشتها القرية، وقد استباحت الشرطة قطعان الخراف والمؤن والطمأنينة. في عصر اليوم الثالث، وصل الحصان منهكاً بدون خيّاله، وتأكد الجميع أن ذياب الفرج قد وصل إلى مكانٍ آمن، فيما قررت مريم الهلوش أن تقص جديلتيها الطويلتين المخضبتين بالحنّاء الموصلية، وبأنها لن تهب نفسها لرجلٍ آخر، مادام ذياب الفرج غائباً.

كنت أنصتُ باهتمام إلى نهار الفرج، ونحن نجلس متقابلين في الفناء الغربي للمدرسة، على كرسيين من الخيزران، بيننا إبريق من الشاي المخدّر، يروي لي تفاصيل هروب ابن عمه إلى العراق، وقد وصلتُ إلى قناعة، أن الزمن لم يتحرك بوصة واحدة إلى الأمام، وكأن هذه المنطقة منذورة للمصائب والنكبات والخنوع إلى الأبد، متجاهلاً القصائد التي كان يرددها العجائز في ليالي المضافات، يمجّدون حوافر خيل الأجداد التي كانت تخبّ فوق الرمال، فينبثق الماء من تحتها.

وكان عليّ أن أدفع حصتي من الديّة مثل أي شخص بالغ في العشيرة، لدم رجل، قُتل قبل عشـــرين عاماً، لأســـباب لا تخصني، وسأكون جزءاً أساســـياً من المشكلة من دون أن أتعمّد ذلك. كنت سجّلت هـــذه الوقائع كما رواها لي نهار الفـــرج، ثم كتبتها في إطار تخييلي، ونُشـــرت على إنها قصة قصيرة في إحدى صحف العاصمة، واسعة الانتشـــار، وهو ما أثار ســـخط أقرباء ذياب الفرج وغضبهم من جهة، وشـــقيق مريم الهلوش من جهة ثانية، باعتبار أن هذه الفضيحة وصلت إلى صفحات الجرائـــد، فاجتمع الوجهاء مرةً أخرى، وبعد نقاشٍ صاخب، قرروا إرسال عريضة للصحيفة، يؤكدون فيها بأنني لا أنتمي إلى عشـــيرة الجبور، ولا أمثل وجهة نظرهم على الإطلاق، إلى تهديدات وشتائم.

كانت هذه الحادثة، أحد أسباب مغادرتي هذه القرية الملفّعة بالغبار، والأقدار المحتومة، والسراب، ففيما كنت أتهيأ للرحيل، كان كهربائي يقوم بأعمال تمديدات الأســـلاك الكهربائية إلى غرفتي، من دون أن أنام تحت ســـقفها يوماً واحداً تحت ضوء مصبـــاح الكهرباء، ولا أعلم ماهو مصير لمبـــة الكاز التي كانت ترافق ليالي الأرق والعجاج والأحلام الضائعة؟ اختراع أديســـون لم يشـــاركني مرةً واحدة، في قراءة «الجريمة والعقاب» لدستويفسكي، أو «ملحمة جلجامش»، أو

«حياة الحيوان الكبرى» للدميري. كنت ألتهمُ السطور والصفحات تحت ذلك الضوء الشـــحيح، إلى وقـــتٍ متأخر من الليل غير عابئ، بنباح الكلاب، وعواء بنـــات آوى، والذباب، ونصائح أمي بالنوم باكراً كي لا أفقد نظري بســـبب هذه الكتـــب الملعونة، خصوصاً أن المدرســـة قد أغلقت أبوابها، منذ أسابيع، و لم تدرك معنى أن يقرأ أحدهم كتاباً، لا يفيده في الدراسة.

8

هل غادرتُ الجزيرة فعلاً؟ لدي شـــكوك عميقة بـــأن رائحة البعر لم تغـــادر أنفي لحظة واحدة، وأن مـــذاق التمر مازال طعمه تحت الأضراس، وأن ذلك الطفل الهزيل، يقف الآن تحت شجرة توت، يهزّ أغصانها بكل قوته كي يلتهم ثمار «الفرطوس»، كما يسميها البداة، لعلهم كانوا يقصدون «الفردوس» أو ثمار شـــجرة الجنة. أمشي في أزقة غويران المتربة إلى غرفة مستأجرة عند تخوم هذا الحي، اكتشفها حســـين جدعان، فانضممت إليه، شغفاً بمغامرات متوقّعة، فلم يكن لدى حسين جدعان ما يخشاه، أو يخسره، إذ كان يتسلل إلى مطبخ الجيران، في غيابهم، ليعود بغنائم من الطعام، أو بحفنة من الســـكر،

لإعداد كوب من الشـــاي في الليل المتأخر، وإنكار ذلك لاحقاً، من دون أن يـــرفّ له جفن. لم ألتقط حمّـــى الحب الأولى التي أصابت ميســـاء، ابنة الجيران، فهي كانت تقتحم غرفتنا، كلما سنحت لها الفرصة بذرائع واهية، خصوصاً، حينما أكون وحيداً في الغرفة، إذ كانت تجلس إلى جانبي فوق السرير بأنفاس متقطعة وملامسات تبدو أنهـــا غير مقصودة، كأن تضع يدها فوق يدي وتضغط عليها بقوة، أو تختطف الكتاب الذي بين يديّ، وتخبئه تحت المخدة، كي أحاول اســـتعادته منها بالقوة، أو بعراك صبياني تشتبك فيه الأعضاء من غير قصد، فألتصق بصدرها، وأضغط على عنقها مهدداً بخنقها، فتعضني بعنـــف، لأنتقم منها بطريقة مشـــابهة. كان طعم القبلة الأولى مالحاً بدوخة صاعقة وبلل اهتزازات جســـدية متســـارعة، انتهت بتسلل ميســـاء من الغرفة بحالة غضب مصطنع، لكنها كانت تتحين فرصاً أخرى للملامســـة والعراك والعناق، إلى أن اختطفها، بعد أشـــهر، ســـائق دراجة نارية يعمل على خط ساحة المدينة – غويران، بتدبير من والدها الذي كان يعمل كاتب استدعاءات وعرائض أمام سجّل النفوس، وكثيراً ما كان هذا الســـائق يوصله في الظهيرة إلى بيته، أو يقله صباحاً إلى مكان عمله، ولاشكّ بأنه انتبه ذات مرةٍ، إلى صاحبة هذا الجسد الفائر قبل أوانه، فوقع في شباكها.

في امتحانات الشـــهادة الإعدادية، أصابني رمد موسمي، من دون أن يكترث أحد لشـــأني، لكنني تمكنت من اجتياز الامتحان بســـلام، وكانت المفاجأة أن اسم صديقي حسين جدعان لم يغب عن قوائم الناجحين. ســـيعترف لي بأن طالباً متفوّقـــاً، كان يجلس في المقعد المجاور له، وضع أوراق إجاباته على مرمى نظر ه، تحت التهديد. في عطلة الصيف التحق حسين جدعان بوظيفة مؤقتة في مركز الحبوب، في محطة الـــ 47، المحطة التي تســـتقبل محاصيل المزارعين في القرى المجـــاورة، وهو ما جعل أمه تتباهى بـــأن ابنها بات موظف ميري مرموقاً، حتى أن محافظ المدينة شـــخصياً يرجو كسب ودّه ورضاه. بنباهته الفطرية، اكتشف حسين جدعان أسرار المهنة الجديدة. كان يروي لنا مغامراته في مركز الحبوب باعتزاز، وهو يســـتل سيجارة من علبة المارلبورو التي يكون قد صادرها من أحد المزارعين. كانت مهنته تســـجيل الرقم الذي يظهره الميزان، لكميات شحن الحبوب إلى المركـــز، وبدلاً من أن يضع الرقم الفعلي لوزن الشـــاحنة، كان يضيـــف أرقاماً وهمية من أطنان الحبوب، مقابـــل مبالغ يُتفق عليها مع المزارعين، بمشاركة موظفين آخرين. وسيتطور عمله في المواسم اللاحقة بصفقات أكبر، إذ تمّ اكتشاف أطنان من الأكياس المملوءة بالتراب ، كانت تُســـجل في القيود الرسميـــة على أنها أكياس قمح

من النوع الممتاز، ثم تُخزّن في المستودعات، ولا أعلم كيف أفلتَ حسين جدعان من هذه الورطة، أو إنه لم يكن شريكاً فعلياً في هذه الصفقات، إنما كان يرغب في تسليتنا بأكاذيب تُعلي من شأنه الوضيع.

كان الامتياز اللاحق لحسين جدعان انتسابه إلى حزب البعث، فهو كان يتحيّن الفرصة، مساء كل يوم ثلاثاء، ليخبرنا بأنه لا يستطيع الخروج معنا إلى السينما، قائلاً بترفّع «لدي اجتماع حزبي»، كما أن لقب «الرفيق» منحه أجنحة إضافية للطيران، إذ لطالما كان يشعر بالغبن والضعة بين أصدقاء يتفوّقون عليه من نواحٍ عدة. قال لي مرةً بأسى واضح «نحن نخجل حتى من ذكر أسماء أمهاتنا».

في مدرسة أبي ذر الغفاري، كنا مزيجاً من أبناء بدو وفلاحين من جهة، وأبناء مهن وصنائع من جهةٍ ثانية. كانت لحظة دخول أمين السّر في المدرسة إلى الصفوف، من أجل تعبئة استمارات غامضة تتضمن اسم الأب، واسم الأم، ومكان الولادة، والانتماء السياسي، لحظة سوداء بالنسبة لحسين جدعان الذي أكمل بجزع: «كنت أتمنى أن أغوص في المقعد، حين يقترب دوري للإدلاء بالمعلومات اللعينة المطلوبة، كان الآخرون يذكرون أسماء أمهاتهم بثقة: جانيت، جورجيت، سميرة، فريال، أما أنا فكنتُ أتلعثم بلفظ اسم أمي: حبشة

الهليّل». ابن عمي يحيى الذي بقي وحيداً في بيت مستقل كان والده قد ابتاعه في غويران، أعاد محمد العطوان إلى الواجهة مجدداً، ولكن بصفة تابع ذليل، ينفّذ أوامر يحيى، من دون تذمّر، مقابل السكن مجاناً. كان محمد قد انتسب إلى المدرسة الصناعية، اختصاص نجارة، بإغراء مكافأة شهرية قدرها خمسون ليرة، كانت بمنزلة إنقاذ إلهي، خصوصاً بأنه يحتاج يومياً إلى علبة تبغ وطنية، ماركة الناعورة، وفي بعض الأحيان إلى زجاجة براندي بمذاق الدفلى، كان هو صاحب الفضل الأول علينا بتذوّق طعم الكحول سرّا، إضافة إلى اختراعات تنتهي بالفشل غالباً، إذ أقنعنا مرةً بصناعة حبر من شقائق النعمان، ومراودة بائعة كعك عمياء تقطن في الجوار، واستعراضات في تحمّل الأوزان الثقيلة مقلّداً جان خابوط، بطل المدينة في رفع الأثقال، ومباريات في الملاكمة كان يخسرها بالضربة القاضية طوعاً، أمام يحيى، لكنه لم يصمد طويلاً لحال العبودية التي كان يفرضها ابن العم على تصرفاته، فعاد مندحراً إلى غرفة تقع على سطح المدرسة الصناعية بصفة حارس ليلي.

عاد أبي من إحدى رحلاته الغامضة في شاحنة، توقفت أمام البيت قبل الغروب تماماً، ثم انشغل السائق بإنزال دراجة نارية مستعملة،

ماركة ستار، وكانت هديته لي، الدّراجة الهوائية القديمة. كانت الدراجة بحالة يرثى لها، عدا أن الغبار يغطي معدنها الصدئ، إذ فقدت الدراجة جناحيها المعدنيين مثل دجاجة منتوفة الريش، وليس «حصيّن حديد»، كما هو أول اسم أطلقه البدو على هذه الآلة العجيبة. حاولت إصلاحها بمفردي، لكنها ظلت بمشية عرجاء، لخطأ في حركة المقود، وقد فشلت كل محاولاتي في إصلاحه. كان الجرس وحده من يطلق نفيره في فناء العرزال برنين معدني صلد. أول ما فعلته هو محاولة نفخ العجلة الخلفية، لكنها كانت تلفظ الهواء بعد ثوانٍ، لا شك بأنها معطوبة أيضاً.

في صباح اليوم التالي، استنجدتُ بمحمد العطوان لإصلاح الدّراجة. تصرّف منذ اللحظة الأولى كمعلّم: طلب فطوراً وإبريقاً من الشاي، وبعد أن أجهز على رغيفين من خبز التنور، وطاسة من اللبن الرائب، صبّ كأساً من الشاي وأشعل سيجارة، ثمّ طلب مني مساعدته في قلب الدراجة إلى الأسفل. ناولته مفتاح قياس 12 إنش، مناسباً لتعيير العجلات، وتزويدها بزيت محركات، كما قام بإصلاح عطب العجلة المثقوبة، وبعد محاولات عدة، استعادت الدراجة عافيتها قليلاً، ثم أردفني خلفه إلى مركز الناحية بالمشية العرجاء نفسها. هناك قدّم للبائع قائمة طلبات، بينها زمّور مطاطي، بدلاً من الجرس

الصيني القديم، وشريط لاصق بلونين، أزرق وأحمر، ولوحات لاصقة مكتوب عليها عبارات ذات مغزى مثل «القلب يعشق كل جميل»، وقد وضعها في المقدمة و«حياتي عذاب» أخذت مكانها فوق مصباح الفرامل الخلفي، ومرآة صغيرة فوق المقود.

عُدْنا من مركز الناحية في الظهيرة، يسبقنا صوت البوق بنداء متواصل، وهو ما نبّه أطفال يلهون في ظل البيوت إلى ما يكسر عزلتهم وضجرهم، فركضوا خلفنا في موكب حاشد، يحيطون بالدراجة من كل جانب، غير عابئين بشتائم وتهديدات المعلّم. على الدراجة الهوائية نفسها، التي شهدتْ رحلتي الأولى إلى قرية الجدّ، قطعتُ وهاداً ومنحدرات، ودروباً موحلة بجسدٍ نحيل وارتباكات صبي ضجر وأعسر، ولد في العراء، جرّب أن يقتحم بدراجته، الجسر الذي بناه الإنجليز، كي تعبرَ دباباتهم إلى الشرق، في اتجاه معاكس، من دون أن يفكر إلى أين ستنتهبه الجهات.

كأن السرّ يكمن في هذه الصحراء الممتدة إلى حدود العراق، معبر قوافل البدو، ثمّ جنود الإنجليز، ثمّ جنود الفرنسيين، ثمّ ثكنات وحواجز حكومات الاستقلال. كل هؤلاء يعبرون على مرمى حجر من ممالك نائمة على أمجاد قديمة، لن تتكرر على الإطلاق.

صحراء تشبه بعيراً خرافياً يلوك أحزانه بصمت، فيما عشرات

السـكاكين المصقولة من الفولاذ، تتناهب أحشاءه. صحراء تحوّلت إلى مدفن لنفايات نووية بصفقات مشبوهة، تسرّبت إلى التراب على مهلٍ، لتهدي المنطقة أكبر نسـبة من مرضى السرطان، في جنازات صامتة، وعويلٍ مكتوم. كأنمـا لا تكفيها هدايا الرّب من العجاج، ومستنقعات البعوض، والأرض السَبِخة، والجفاف، وجرب الحمير، والطاعون، والملاريا، والسّـل، وأتاوات الموظفين، وسطوة الغرباء، وآلاف البشـر المكتومين الذين وجدوا أنفسـهم بـلا قيود رسمية تخصهم في سجلّات النفوس.

الشريط الأخضر من حقول القطن المتاخم ضفتي الخابور إلى مسقط الفرات، اضمحل إلى ربع المساحة بسببٍ من سدودٍ وهميّة، اخترعتها خطط خمسـيّة على الورق، لإرواء قرى الجنـوب، فازداد العطش أكثـر مما كان، وجفّ حوض النهر تمامـاً، ثم لفظ أسماكه وأفاعيه وضفادعه، و غادرته أسراب البطّ البري واللقالق. لا أحد لديه إجابة حاسمة عن مصير السعالي التي كانت تثير فينا الفزع في ليالي العتمة، ولا أحد لديه الوقت والرغبة في حراسة قبور الأولياء التي كنّا نعتقد بأنها تحرسـنا من الفناء، فوق التلال المجاورة. التلال التي كنّا نحفر أحشاءها تحت شمس الظهيرة، فتصطدم فؤوسنا بعظام موتى، وقطع من الفخّار، وعملات قديمة، تحمل رسوم ملوك مجهولين. مات النهر

الوطني الوحيد من دون جنازة لائقة، تحت نظر موظفين كبار تعاقبوا على حفر الآبار الارتوازية في محيط النبع إلى أن استنزفوا المياه الجوفية تماماً، في زراعة إقطاعيات خاصة بهم.

يُست بساتين الكروم وعرائش العنب التي كانت تظلل البيوت في القرى الآشورية، و لم يعد متاحاً تذوّق نبيذ تل تمر، وتل هرمز، وتل نصري، وتل شميرام. كان صديقي في الثانوية العامة خوشابا دنخا، قبل هجرته إلى أمريكا للالتحاق بجالية آشورية كبيرة، نزحت إلى هناك، يتحدث عن النبيذ الآشوري بوصفه إكسيراً للحياة، يمنح من يتذوّق قدحاً منه قوة نبوخذ نصّر.

« قامشلي.. قامشلي، راكب واحد على القامشلي» يرددها سائقو تاكسي عند مدخل الكراج، كأنها أغنية مستحيلة على مسمع عشّاق لذة وشهوات، لكن أرض القصب المتاخمة للحدود التركية، لم تعد باريس أخرى، كما خطط لها معماريون فرنسيون في أوائل عشرينيات القرن المنصرم، بل قرية كبيرة موشّحة بالغبار والضغينة والريبة والمكائد. كنت اقتنيت نسخة نادرة من كتاب « طوق الحمامة « لابن حزم من مكتبة اللواء في القامشلي، لصاحبها

أنيـــس حنا مديوية، صاحب أول مكتبة في المدينة، ومؤســـس أول مطبعة في البلاد باسم «مطبعة الرافدين». في تلك الزيارة إلى المكتبة الضخمة، سلكتُ درجاً لولبياً يهبط إلى المخزن، ووقعتُ على آلاف الكتب المكدّســـة بفوضى، إلى أعداد مهترئة من صحيفتي «صوت الجزيـــرة» لصاحبها عبد الحليم طيّارة، و«الشـــرق» لصاحبها وليد الجابي،المحتجبتين. مدينة القصب فقدت نهرها «جغجغ»، وتعطّلت على أرضها ســـكة حديد قطار الشرق السريع الذي كان مقرراً أن يربط ما بين برلين والموصل. القطار الذي كتبت عنه آجاثا كريستي روايتها الشـــهيرة، أجفـــل ضجيج عجلاته، الأرانـــب، والغزلان، والثعالـــب، التي كانت تنحدر بطمأنينة من جبال طوروس، إلى بريّة واسعة، أقرب إلى محميّة طبيعية، إلى أن انقرضت تماماً بسبب موجات التصحّر والصّيد والدمار المنهجي للبيئة.

شمّريون، وطائيون، وجبور، وبقّارة، انحدروا من نجد قبل ثلاثة قرون، في رحلة تيه طويلة، ســـلكوا خلالها دروبـــاً متعرّجة، وقطعوا أنهاراً وصحارى وجبالاً جرداء، انتهت بهم إلى ســـهول الجزيرة السورية، بعد أن أطاحت اتفاقية ســـايكس بيكو أوصال القبائل بسيف مخافر الحدود، فتوزّعت إلى عشـــائر وأفخاذ وبطون: بني سبعة، والعسّاف

والبـــو عاصي، وآخرون، ثم من نجا مـــن جحيم مذبحة الأرمن، ثم كلدان هاربون من الموصل، وســـريان ضاقت بهم الجبال، ثم أكراد هائمون من تركيا والعراق وبلاد فارس، ويهود، ونازحون من لواء أســـكندرون، وديار بكر، وماردين، احتضنتهم العشائر، واحتطبتْ غربتهم بالألفة ورائحة الهال في القهوة المرّة، ونحر الخراف للضيوف الطارئين، وحســـن الجوار، ثمّ سيتكشّف المشهد بعد سنوات عن بدوٍ بسحنات بيض وعيون زرق. بدو تناسلوا من أمهات أرمنيات، لم تبقـــر بطونهنّ حراب الجنود العثمانين، للتفتيش عن ذهب مخبأ في الأمعاء. الأرض الخلاء المحاذية لنهر جغجغ، استيقظت ذات صباح من العام 1926 على حامية عســـكرية بناها الفرنســـيون كمركز لمدينة مســـتحدثة، ستحمل اسمها العثماني القديم «قامشلي» (**أرض القصب**)، تبعها بناء مســـتوصف، وسجن، ودار للحكومة، ومحلّ عمومـــي، وطاحونة، ثم بيوت طينية لبدو وقرويين اســـتطابوا هواء المدينة الجديدة بشوارعها المستقيمة والمتوازية، وأشجارها، وقصورها المبنيّة على الطراز الباريســـي، وخبز أفرانها الشـــهي، وجمال نساء النصارى بثيابهنّ المكشوفة، و مذاق لذة أجساد بنات هوى جئن من مـــدن الداخل، لا تجيد البدويات منحها لأزواجهنّ، في أكثر الليالي العاصفة حلكةً.

قامشـــلي.. قامشـــلي، مدينة الغبار، وخـــبراء الميكانيك الأرمن، وماســـحي الأحذية الأكـــراد، وقرى الغمر، والإثنيـــات المتنازعة، وقطارات المرضى، و شـــحوب أبناء حي قدور بك الذين تتوزعهم عشـــوائيات الأرياف، معارض سيارات بالتقسيط، وهموم مزارعين مثقلين بالديون، والقروض المؤجلة بانتظار معجزة تأتي من السماء، وفســـاد مديري مصارف يحصلون على مناصبهم من مركز العاصمة مقابـــل مبالغ ضخمة، و متعقبي معاملات لـــن تنجز أبداً، وعطش أبدي لكرامة مهدورة على أيدي موظفين ورجال أمن يحملون أختام الدولة، وسائقي شاحنات صغيرة، حصلوا على رخص قيادة بالرشى، فقادوا شاحناتهم في شوارع المدينة، كما لو أنها ثيران هائجة.

كان أحد أمناء شـــرطة المحافظة يفرض جباية إجبارية على مدراء مراكز شهادات السوق، على كل شهادة سوق خصوصية أو عمومية تحمل خاتمه و توقيعه، فيما اخترع محاسبو التربية والتعليم قوائم وهميّة بأسماء ورواتب معلمي مدارس، انتقلوا منذ ســـنوات إلى محافظات أخرى، بعد خدمة ريف إجبارية لمدة سنتين، ومحاضر شرطة يغطيها الغبار في خزائن مغلقة، ممهورة بإفادات عن جرائم شرف لا تُحصى، قُيـــدت كالعادة ضد مجهول، عن طريق صفقات مشـــبوهة تتمُّ بين الشرطة وزعماء العشائر في غرف مكيّفة الهواء.

في كل قطيع شـــياه ضالة، لكن حالة الخنوع القســـري، لم تبقِ شاة واحدة خارج المعلف، في مرآة الطمأنينة الكاذبة، فالخوف استوطن الشـــرايين والأوردة، وحدقات الأعين، أمام سطوة الغرباء. شرطي واحد ببذلة كاكي وحـــذاء مغبر، وأوراق مدموغة بأختام حكومية يطيـــح الكرامة من جذورها، فتنحني الـــرؤوس إلى الأرض بالطاعة العمياء، تتلعثم الشفاه، وتفقد النطق، ذلك أن آلية تطويع وإخضاع الفرد، عقداً وراء آخر، انتقلت من الجسد إلى العقل(**هل كان ميشيل فوكو هناك؟**).

في المقابل، فإن هيبة الشرطي تُسحق مقابل وليمة من الدجاج، فيما تذوب هيبة رئيس المخفر في حســـاء خـــروف. هذا عرف متداول راكمته سنوات الخوف، والمصالح المتبادلة، ومكر البدو.

تلك الليلة كانت الدبكة على أشدّها. لم تكن ليلة مقمرة، لكن ضوء المصابيح الكهربائية، كان يشع في دائرة واسعة، وكان صوت المغنّي الشـــعبي عمر سليمان يطغى على إيقاع الأرجل والأيدي المتشابكة، فبعد استشـــارات ومداولات متعددة، قام بها مطيران العبيد، أمام عتبات الضحى، مالت بيضة القبان أخيراً، لمصلحة زواجه، بدلاً من شراء شاحنة تويوتا، ماركة السيّارات المفضّلة لفلاحي الأرياف. في تلك الضوضاء المجنونة، همس جلّود السبهان الذي كان يمسك بيد

فرحـــة العلي في حلقة الدبكة، لحظة ارتطام نهديها المتوثبين بصدره، بـــأن تلحق به إلى الخـــارج. كانت حمّى الرغبـــة قد بلغت أضلاع كليهما، إثر قصة حب عاصفة، فانقادت وراءه كالســـائر في نومه. ما إن ابتعدا قليلاً عن مرمى الضوء، حتى احتضنها بعنف وراء مخزنٍ للحطب، وكاد لهاثه أن يصل إلى الجوار. باغتها برغبته الزواج منها على الفور، غير عابئ برفض والدها المتكرر له لانتســـابه إلى عشيرة أخـــرى أقلّ أهمية في أعراف القبائل. ما إن تلاشـــى خوار الثور في صدره، حتى أمرها أن تســـبقه إلى ســـيارة متوقفة على يمين الطريق العام. أجابت فرحة باضطراب، وهي تداري ألماً طارئاً بين فخذيها، بأنها ســـتذهب إلى البيت أولاً، كي تجمع حاجياتها وتخبر شـــقيقتها الصغرى بما تنوي فعله، لكن العاشق حذّرها بألا تخبر أحداً، وتكفّل بأن يتدبّر الأمر. مشـــت فرحة بخطوات متعثـــرة بتأثير من دوخة الحب الأولى، نحو الســـيارة من دون أن تلتفـــت إلى الوراء، أو أن تفكّر بالفضيحة التي تنتظرها. أحســـت بأنها تحلّق عالياً بأجنحة لا مرئية، وأن غيمةً من الرغبة تبلل جسدها كاملاً، فيما عاد جلّود إلى العرس لدرء الشـــبهات. أطلق ثلاث رصاصات من مسدسه في تحية العريس، ثم تسلل خارجاً. بعد أن قطعا نحو خمسة كيلومترات خارج القرية، في دروب متعرّجة، شـــعرا بهول المصيبة التي ارتكباها، فقررا

التوجـــه إلى الحدود العراقية، واللجوء لدى أقارب للعاشـــق ينتمون إلى العشـــيرة نفســـها بقصد حمايتهما من مـــوت محقق، في حال تمّ اكتشـــاف أمرهما، وريثما تهدأ الخواطر. سلك جلّود السبهان طرقاً ترابية وأخرى رملية، تحت سماء صافية، ثم أوقف الســـيارة فجأة، في وادٍ مهجور. ترجّل من السيارة،استنشـــق هواء الصحراء بملء رئتيه، ثم قاد محبوبته إلى الصندوق الخلفي للسيارة. كان قد جهّز فراشاً من الإسفنج ومخدة خفيفة، وشرشـــفاً برسوم ورود متشابكة، كانت شـــقيقته العانس قد خبأته لليلة عرسها، ثم افترشا أرضية الصندوق في عناق وحشي، تحرسهما نجوم بعيدة، وكأنهما كانا يحدسان بأنها المـــرّة الأخيرة لاصطخاب أضلاعهما بمثل هذا العنف. هكذا اختلط عواؤهما بعواء ذئاب بعيدة. عند نقطة الحدود التي وصلاها قبل الفجر بقليـــل، فاجأهما كمين غير متوقّع. أحس رئيس الدورية وهو يضيء المصباح اليدوي نحو كبين الســـيارة بريبة تجاه العاشقين. العاشقان العاثران اللذان وجدا نفســـيهما وجهاً لوجـــه مع دورية حدودية، كانت تكمن وراء تلة ترابية، خصوصاً أنهما لا يحملان وثائق رسمية تثبت هويتهما، فاحتجزهمـــا في المخفر القريب، ريثما يحضر رئيس المخفر في الصباح التالي. شرح جلّود للرقيب حكايته كاملةً من دون أن يهمـــل تفصيلاً واحداً، على أمـــل أن يتضامن الرقيب مع محنته،

ويداري فضيحته، ويسمح له بالعبور قبل أن يُكتشف أمره، فخطف امرأة بهذه الطريقة يعني موتاً محتّماً، وهذا ما يعرفه الرقيب جيداً، إذ لطالما شهد حكايات مشابهة خلال خدمته الطويلة في سلاح الهجانة.

لم تغمض أجفان العاشقين طوال ما تبقى من الليل، فقد أحسّا أن نهايتهما مؤكدة. وكان طعم شاي آخر الليل مرّاً.

كان الرقيب قد قبض ثمن الصيد، فخلال التحقيق مع العاشقين عرف اسميهما واسم قريتهما، فأرسل أحد جنوده في مهمة عاجلة، قبل أن يحضر رئيس المخفر ويعقد الصفقة لحسابه الخاص. في السادسة صباحاً حدثت المجزرة. سلّم الرقيب الرهينتين لجنون بنادق شرسة، وصرخات تفجّع من دريئتين ثقبهما زخم الرصاص الذي لم يتوقف إلى أن تحول الجسدين المتكومين فوق الرمال إلى غربال لحم واستغاثات.

رفض أهل العاشقين استلام الجثتين ودفنهما في مقبرة القرية تجنباً لعارٍ سيلحق بالعشيرة إلى الأبد، فاضطر الرقيب وجنود آخرين، كانوا يتفرجون على المشهد بحيادية وضجر وتثاؤب، إلى لف جثتي العاشقين بالشرشف الذي شهد حمى جسديهما قبل ساعات، في خندق يفصل الحدود بين البلدين، وكأن شيئاً لم يحدث. أمر الرقيب أحد الجنود بجمع فوارغ الرصاص المتناثرة أمام نقطة التفتيش، ثم

أشعل سيجارة، وقال غامزاً الجندي: بدو أجلاف.

كانت الحدود العراقية السورية مغلقة رسمياً، طوال حقبتي الثمانينات والتسعينيات، لكن المهرّبين لم يتوقفوا يوماً، عن إتمام صفقات تهريب السكّر والشاي والحبوب والأغنام، بتواطؤ من حرس الحدود، وحرس البادية، ودوريات الأمن، فالتسلل بين جهتي الحدود في صحراء مفتوحة، بالنسبة لبدو خبروا هذه التضاريس جيداً، لا يتطلب مخاطرة كبيرة. يكفي أن تبتعد كيلومتراً واحداً عن أقرب نقطة تفتيش، لتجد نفسك في مأمن، لكن ما أن تعبر الحدود ستجد دورية أمن بانتظارك للمساومة على الصفقة، أو لمصادرة قطيع أغنام تنفيذاً لأوامر صارمة تدعو إلى نحر الأغنام العراقية المهرّبة، ودفنها في محارق، أُعدت خصيصاً، لهذا الغرض، بقصد التخلّص من مواد مشعة تحملها هذه القطعان، بتأثير من أطنان القذائف المشعة التي خلّفتها حرب الخليج وتوابعها، في تدمير بيئة العراق.

اعتبر أهالي القرى المحيطة بموقع المحرقة، ما يقال عن إشعاعات وسموم تحملها القطعان المصادرة مجرد إشاعات حكومية لا قيمة فعليّة لها، فتوافدوا إلى المكان بشاحنات نصف نقل، وجرّارات زراعية، ودرّاجات نارية، وحمير، في دائرة حول المقبرة المرتجلة لحرق مئات

الأغنـــام ودفنها، وهكذا ما أن أنجـــزت اللجنة الحكومية المؤلفة من مسؤول حزبي ودورية من الشرطة، مهمتها، وانسحبت من المكان، حتى تدافعت الجموع البشـــرية إلى الحفرة لســـحب الذبائح قبل أن تلتهمها النيران، والفوز بغنيمة مجانيّة، ووجبة دسمة من اللحم الممزوج برائحة مازوت نفّاذة.

كان دويك العبود يقف على قد م واحدة، بعد أن نخرت «الغنغرينا» قدمه الأخرى، إلى جانب دراجة ناريّـــة، يتفرّج على غبار المعركة الطاحنة بين بشر يشـــبهون طيوراً جارحة لانتزاع الذبائح، من بين السنة اللهب، بانتظار عودة ابن شقيقته بحصة تكفي عائلتين. طوال طريق العودة، كان يفكر بوســـيلة لاســـتثمار هذه المذبحة على نحوٍ يجلب له دخلاً معقولاً، خصوصاً بأن تجارته في تصدير بذور البطيخ إلى المدينة، لم تعد رابحة، بوجود منافسين أشدّاء، فهداه تفكيره أخيراً بأن يبني علاقة مع المســـؤول الحزبي في مركز الناحية، فهو الشخص الوحيد الذي يعلم موعد إقامة المحرقة، وتالياً ســـيكون بين طلائع من سيصل إلى مكان حرق الأغنام، والاستيلاء على كمية أكبر من الذبائح وبيعها في مركز الناحية لقصّاب حلبي، اعتاد أن يخلط لحوم الأغنام بلحوم الحمير والقطط والعجول النافقة. لم يكن الاتفاق مع المسؤول الحزبي عسيراً، كما كان يتوقع، فبعد حوار ملغّز على نسبة

العمولة، أصرّ المسؤول الحزبي على أن يوصله بسيارته الخاصة إلى القرية، وأخبره بأن لديه جولة حزبية على القرى المجاورة.

فور وصوله إلى القرية، أشاع دويك العبود خبر تسمّم تسعة أشخاص في قرية عجاجة، إثر تناولهم لحوماً فاسدة، كانوا قد جلبوها من «مقبرة الحكومة»، وقد نُقلوا إلى المشفى الوطني في الحسكة، في حالةٍ خطرة، ثم أبلغ الجميع أن الحكومة قررت نقل مقبرة الأغنام إلى نقطة قريبة من الحدود، وسوف تسيّر دوريات شرطة كثيفة لمنع الأهالي من اقتحام المكان. الخطة كانت ناجعة إلى حدٍّ كبير، إذ امتنع كثيرون من الذهاب إلى هناك، فيما بدأ دويك العبود توريد الذبائح إلى القصّاب الحلبي بموعدٍ محدّد، بمساعدة ابن شقيقته الذي استأجر شاحنة مخصصة لهذه المهمة، من مركز الناحية.

هلال الجربوع كانت له حصته في الغنائم، فهو منذ أن استقرّ في خيمة عند الحدود بالقرب من هنغارات شركة النفط، اختص في بيع براميل الزيت الفارغة، والقضبان الحديدية، والمعلّبات التي كان يستولي عليها من مخلّفات مواقع التنقيب وحفر الآبار، وكانت سيارات خبراء النفط الروس تتوقف أمام خيمته في استراحات مؤقتة تتخللها كؤوس شاي سوداء، أو طاسة من اللبن الرائب، ثم جولات مباغتة لدوريات أمن كانت تجوب الحدود، لتوجّه إليه

أسئلة عن متسللين غامضين، وانتهى به المطاف أن بنى حظيرة لحراسة قطعـــان الأغنام المصادرة، ريثما يحين موعـــد نحرها وإحراقها. انتبه هـــلال بفطنته وخبرته في التجارة، إلى أن الأغنام المصادرة أكثر سمنة من الأغنام المحليّة، فابتكر طريقة للاســـتفادة من هذه الميزة، وذلك ببيع هذه الأغنام في سوق الماشية وشراء أغنام محلية هزيلة بدلاً منها، مستفيداً من الفروقات في أثمانها، خصوصاً أن دوريات الأمن كانت تحاسبه على عدد الرؤوس المودعة لديه، بصرف النظر عن نوعيتها.

9

كنـــت على بعد ألف كيلو متر، حين وصلني خبر موت جدّتي فضة الجاســـم. لم أتمكّن من حضور جنازتها، لكنني أحسست لأول مرة بالمعنى العميق للفقدان والغياب والزوال. كانت جدتي قد احتفظت بكفنها وزجاجة عطرها الأخير، منذ أن داهمها مرض ترقق العظام، واضطرارها إلى استعمال عصا في حركتها، لكنها أخطأت الحساب نحو خمس سنوات لمصلحة حياة لا معنى لها، كما كانت تردد، كلما همّـــت في النهوض، من مكانٍ إلى آخر، وكان عليها أن تجدد كفنها أكثر من مرة، خشـــية أن يباغتها الموت، من دون أن تكون مستعدة للرحيل الأبدي.

قبل رحيلها بسنوات أهدتني معْنَقة من الصوف المزخرف برسوم غزلان وأحصنة وزهور وألغاز، كانت نسجتها بقرن غزال أثناء شبابها الأول، حين كانت خيوط الصوف المجدولة في بساط ملوّن، وحدها من يحددّ مصائر الأمنيات، في صحراء مفتوحة على الجهات الأربع. معنقة بجيبين كبيرين من تلك التي توضع على عنق الجمل أثناء الترحال في الصحراء. لم تمانع أيضاً، بأن تمنحني مكحلة نحاسية بمرود من الخشب، وطوق من الخرز الملوّن، أخرجتهما من صندوقها الذي كانت تحتفظ بين طبقاته وأدراجه بكنوزها القديمة التي تعود إلى يوم عرسها: «هديتي ليوم عرسك»، قالتها بصرامة، للتأكيد على قيمة ما قدمته لي.

فقدتْ جدتي ذاكرتها تماماً قبل رحيلها بثلاث سنوات، كما حصل لجدّي تماماً، في آخر أيامه، وبالتوقيت نفسه، وصارت كومة عظام يحملها جسد هزيل، تخطئ بأسماء أحفادها، وذلك باستدعائها أسماء أخرى مجهولة، وكثيراً ما كانت تناجي موتاها، وتروي لهم حكايات عن شوقها إليهم، وشغفها بالالتحاق بهم، بعد أن ضجرت بثقل تسعين عاماً من الهباء والوحدة والضجيج.

ليلة موتها، نفضتُ الغبار عن المعنقة التي كنت قد علّقتها فوق جدار غرفتي لإرضاء شهوة غامضة بهوية لطالما كانت ملتبسة ومنهوبة،

فقـــد تملكتني حالة فولكلورية، في حقبةٍ ما من حياتي، أو إنها كانت مجرد حالة حنين لبداوة آفلة، لم أعشها كما ينبغي. كنت أشمّ رائحة جدتي، وأنصتُ إلى أغانيها، وهي منحنية على الســـدو المشدود بين وتدين، وأحاول أن أفكّ الإلغاز التي دفنتها بين الخطوط المتشـــابكة، أتتبع حركة غزال يهمُّ بالتهام زهرة أقحوان، وأتساءل هل هو الغزال نفسه الذي كانت جدّتي تعدني بقدومه كي يروي عطشي؟

أستعيد حكايات جدتي بصوتها نصف النائم، وأناأقتفي رحلة الإيطالية ليديا بتيني إلى الجزيرة الســـورية، لتسجيل «سوالف الحريم» باللهجة البدوية، قبل اندثارها. كانت ليديا بتيني قد وضعت في ذهنها توثيق التراث الشفوي في المنطقة، فزارت عشرات القرى المتاخمة للخابور، وأمضت نحو عشـــرين عاماً في زيارات متتالية، إلى أن أتقنت اللهجة المحلية تماماً، وكأنها واحدة من تلك النساء البدويات.

هكذا جمعت خمسين حكاية باللهجة البدوية، وإذا بشهرزاد تستيقظ بلسان بدويات مجهولات وأمّيات من عشائر جبور وطي وشّمر، يحملنّ أسماءً غريبة مثل فطيم، ونوفة، وهدلـــة، وعنود، ومهيّة، ووضحة. حكايات لا يتوانى أبطالها عن خوض مغامرات عجائبية مع حنفيش

على هيئة رجل، وسعلوة على هيئة امرأة، أو أن تسافر امرأة وحيدة، ثلاثين يوماً في الصحراء، دون أن تصادف أحداً، ثم تقع تحت سطوة عبد أسود، يربطها بحبل كي لا تهرب خلال نومه، لكنها بحيلة بارعة تربط الحبل بشـــجرة، وتبتعد. بالطبع لن يرتبك الراوي حين يخترع فجأة، شـــجرة في صحراء رملية، ذلك أن إنقـــاذ امرأة وحيدة في حكاية، أكثر أهمية من حقيقة وجود شجرة في مكانٍ مقفر.

العطش والركض وراء الســـراب هما الحقيقة الدامغة الوحيدة التي لم تتغيّر فوق تلك الســـهول الرملية الشاسعة، منذ أن غرز الجدّ الأول جبارة الجبر وتداً، ورفع بيتاً من الشَـــعَر، ونظر إلى السماء لمعرفة جهة الشمال، لكنه بعد سنوات متلاحقة من الظمأ، وجفاف الآبار، وندرة المراعي، سيذهب إلى جهة الغرب، مستهدياً بحاسة شم فرسه الســـوداء التي لم تتوقف إلا عند ضفاف نهر الخابور. انحدر نحو الماء بحذر. أزاح أشجار الزل الكثيفة عند الشاطئ بمقدمة بندقيته البرنو، وانكبَ بوجهه فوق الماء إلى جانب فرســـه إلى أن ارتويا. أطلقت الفرس صهيلاً متواصلاً، وهي تدقّ بحافريها الأماميين الأرض بقوة، وأدرك الجّد بحدســـه البدوي، منذ تلك اللحظة، التي رأى فيها تلّةً عالية عند تخوم النهر بأن هذه التلّة ســـتحتضن أجســـاد سلالته إلى الأبد، وستكون البقعة التي تركت الفرس آثار حافريها فوقها، موقع

أول شجرة رمّان ستنبت في قرية عجاجة كلها.

قبل رحلة الجّد، بنحو ثلاثـــة قرون ونصف، كان الرحّالة الهولندي ليونهارت راوولف، يخترق أرض الجزيرة الســـورية بســـفينة قادمة مـــن نهر الفرات إلى مصب نهر الخابور، للتعرّف على أنواع النباتات والأعشاب الطبية الموجودة في المنطقة، وسوف يسجّل في دفتر يومياته، قائمة بنحو مئة وعشـــرين صنفاً من النباتات والأشجار التي وجدها على ضفاف الفرات والخابور مثل الأكاســـيا، والعاقول، والسمّاق، والزعتر، والحليّان، والطرفاء، والكينا، والخلنجان، ولبن الطير، وسم الكلب، والعجرم، والطلحة، ورجل الغراب، والعيصلان. وسيفاجئ بوجود مشـــروب لذيذ يدعى القهوة، مستخرج من ثمرة يدعونها «البن» قالوا أنهم يســـتوردونها من الهنـــد، لكن رحلة راوولف لم تكـــن لتخلو من مخاطـــر ومجازفات، إذ تعامل معـــه البدو و الجنود العثمانيون بوصفه جاسوساً، من دون إثباتات دامغة، وكان عليه أن يدفع مزيداً من الأتاوات والضرائب ليكمل رحلته - التي اســـتمرت مدة ثلاث سنوات- بســـلام، وهو في الواقع لم يكن سوى «صائد أعشاب طبيّة» بإذن رسمي من والي حلب، إذ تحفل مذكراته بأنواع النباتات التي كان يصادفها، مقتفياً أثر ابن سينا، والرازي في تسجيل أسماء النباتات وفوائدها، وكان يأمل أن ينجز وصفات ناجعة تشفي

أمراضاً مستعصية. كنت أقلّب في كتاب «الأسفار والرحلات العجيبة» باحثاً عن نمط عيش البدو خلال القرن السادس عشر على ضفاف الخابور، بعينيّ رحّالة هولندي، عبرَ هذه الصحارى والوهاد والقلاع، فوقع نظري على تسمية قديمة لنهر الخابور، هي «أمانشور»، كما يشير إلى انتشار زراعة النخيل والليمون والبرتقال والكروم على ضفتيه.

هل كان بدو منتصف القرن السادس عشر مجرّد قطاع طرق، أم إنها الخشية والريبة البدوية من الغرباء؟ يذكر راوولف أن سفينته تعرّضت لأكثر من كمين، لكن اللصوص كانوا يهربون بمجرد سماعهم صوت الرصاص في الهواء، فهم لم يخبروا هذا النوع من الأسلحة الشيطانية آنذاك.

قهوة مرّة ولبن رائب وزبيب للضيوف، وطيف شاعر جوّال يدعى الأخطل لطالما تنقّل بين هذه الأماكن بكل روائحها وصليل سيوفها وحمحمة خيولها، وإذا بها تُقفر فجأة تحت وطأة الجفاف والقحط والعجاج، كما هو حالها اليوم تماماً، في دورة مناخية كاملة، امتدت خمس سنوات متعاقبة. أردد بأسى، وأنا أعبر عشرات القرى المقفرة برفقة سائق سيارة شاب، ما قاله هذا الشاعر يوماً:

«حيّ المنازل بين السّفح والرّحب/ لم يبق غير وشوم النار والحطب».
ليختلط بصوت شاعر آخر هو عبد الله الفاضل، ذلك أن أنين ربابته ما يزال يتردد إلى اليوم بين تخوم تلك الأمكنة، فهذا البدوي المعذّب وصاحب الفراقيات المشهورة، ترك وشماً لا يمحى في حناجر الشعراء الجوّالين. ستحلّ لعنة الجدري على الفارس، حين كان الجدري وباءً معدياً، لا شـــفاء منه، في منتصف القرن التاسع عشر، فتغادر القبيلة مضاربها عند موقع البصيرة على الفرات باتجاه بادية الشام، خوفاً من انتشـــار الوباء بين القوم. يستيقظ الفارس النحيل ذات فجر، فيجد نفسه وحيداً، في خيمة مكشوفة على عراء المواقد، لايؤنس وحشته سوى كلبه «شير».

كان القوم قد أوصوا رجلاً بالبقاء إلى جانبه، كي يدفنه لحظة موته، لكن الرجل لحق بهم على الفور، خوفاً من العدوى، وأخبرهم أن عبد الله الفاضل قد فارق الحياة. وســـتعبر بعد أيام على محنته، قافلة غجر قرب المكان الذي طالما أكرم ضيافتهـــم، فتقرر الأم الكبرى لقافلة الغجر الاعتناء بالفارس العليل. هكذا راحت الحكيمة الغجرية، تغطي بثور وجهه بخلطة من الإعشـــاب البرية والزيوت في وصفات خبرتها جيداً، إلى أن شُفيَ من علته، ولكن إلى أين سيغادر الفارس الخائب

والمحزون بوجهه المبثور، بعد أن خانته القبيلة ووسامة الوجه؟ يتجه شمالاً ويحط رحاله في مضارب زعيم قبيلة كردية يدعى «تمر باش»، فيعمل خادماً في مضافته، من دون أن يكشف عن حقيقة سلالته. كان عبد الله الفاضل يجلس عند موقد القهوة، ينصت إلى أحاديث الضيوف بصمت. يقلّب الجمر على مهل تحت دلّة القهوة المرة، كما لو أنه يقلّب دفتر أيامه التي مالت به غدراً. كانت رائحة الهال تملأ أنف تمر باش، كلما دار خادمه بالدلّة النحاسية على الضيوف، كما انتبه إلى مذاق القهوة، وجودة صنعها، وهو ما جعله يشكّ بأمر هذا الخادم، فالطريقة التي يعد بها القهوة تدل على أن هذا الرجل ليس مجرد متشرد عابر، بل صاحب خبرة. استدرجه مرة للعب «المنقلة»، وهي نوع من ألعاب النرد، فتفوّق الخادم على سيده، مما أثار غضب السيد فأهانه بأقذع العبارات. لحظتها اتجه عبد الله الفاضل إلى الربابة المعلّقة في صدر المضافة، وأنشد قصيدة طويلة في وصف قومه، والمأساة التي حلّت به:

«هلي مالبّسو الخادم سملهم
وبكبود العدا بايت سم لهم
كان اهلك نجم أهلي سما لهم
وكثير من النجم علا وغاب».

وفي عتابا تمجيدية أخرى:

«هلي يهل المحمس والبريجي
ويقهوة غيرهم حنظل بريجي
هلي مثل الزواعج والبريجي
ارتمت منها الزلازل ولطواب».

سوف يغضب تمر باش من هذا المتشرد القبيح الذي يعتز بأصوله أمام وليّ نعمته، فيأمر بحبسه، ريثما يصله الخبر اليقين عن أصول هذا الرجل الغامض، وحين يعلم بعد أشهر بأن خادمه كان فارس قبيلة كبرى، يعتذر منه بشدّة، ويقرر تزويجه ابنته، لكن عبد الله الفاضل يرفض العرض بإصرار، ويغادر مضارب تمر باش، بصحبة ربابته، من دون أن يعود إلى قبيلته أبداً.

لم يدر ببال عبد الله الفاضل بأن قصيدته المؤلفة من اثنين وسبعين بيتاً، ستكون أصل العتابا في بادية الشام كلها، وبأن شعراء جوّالين، سيروون حكايته بطرق مختلفة، كيفما تهب ريح عازف الربابة، وريح العتابا في ليالي الأسى الطويلة.

كنت أعبر ساحة يوسف العظمة، وسط دمشق، بلا هدف، في مساء صيفي حار، حين استوقفني شاب نحيل، يرتدي بزة عسكرية،

وحيّاني بلهفة المشتاق. ارتبكت قليلاً، وأنا أتمعّن في قسمات وجهه، فعاجلني بقوله «أنا ابن حسين جدعان».

في مقهى مجاور حكى لي الشـــاب بأن والـــده مريض، و يعمل في قطاف الخضـــر والفواكه في إحدى قرى درعا، في الجنوب، بعد أن فقـــد وظيفته في مركز توزيع الأسمنت والمعـــادن بتهمة تزوير فواتير رسميّة. سأزور حسين جدعان بعد أشهر في مشفى المواساة. استقبلني بشوق، وحين سألته عن مرضه، أجاب بلا مبالاة « تضيّق في شرايين المخ». لعل سيرة حسين جدعان هي من أيقظت بي، حماسة الذهاب إلى تلك القرى المنكوبة ومعاينتها عن كثب.

قرى طينية مهجورة تمامـــاً، غادرها أصحابها بعد أن فقدوا أي أمل بالنجاة، كأن حنفيش إحدى الحكايات الخرافية ابتلعهم جميعاً، في ليلة ظلماء. جدران طينيّة مشققة ومتداعية، وأعشاش عصافير مهجورة، وأبواب وشبابيك سُدت بقطع من البلوك كنوع من الحماية لما تبقى من أملاك. معلّبات فارغة من بقايا مســـاعدات حكومية ضئيلة، لم تقنع الأهالي بالبقاء، مدرسة مغلقة يرفرف فوق سطحها علم ممزّق، وتغطي أحد جدرانها شـــعارات ثوريّة، جثث حمير نافقة، زجاجات أدويـــة فارغة، صفائح تنك، هيكل دراجة هوائيّة، تنّور مكســـور، أحذية تالفة، عظام طيـــور وحيوانات، حظائر مهدّمة. ألقيتُ نظرة

من طاقة مكشـــوفة إلى داخل أحد البيـــوت، فلمحت صوّراً على الجدران، بينها صور لزعماء ونجمات سينما، وجنود، وآيات قرآنية. كان الســـائق الذي رافقني، في الجولة، يحاول أن يخفف وطأة المشهد باســـتعارة عبارات منمّقة في وصف أحوال المنطقة التي نُكبت منذ سنوات بالجفاف باعتبار المســـألة ربّانية لها علاقة بقرب يوم القيامة وحسب، فهو كان حذراً من اتهام السلطات المحليّة بالإهمال، مكرراً عبارة «ســـلة غذائية كاملة» في وصف مساعدات الحكومة لسكان القرى المتضررة.

كنـــت منهمكاً بالتقـــاط صورٍ فوتوغرافية لكل مـــا تقع عليه عين العدسة، رابطاً إياها بالصور التي التقطها الفرنسي أنطوان بواديبارد، في ثلاثينيات القرن العشرين لتوثيق قرى ومدن الجزيرة. الصور التي يحتفظ بها اليوم، أرشيف جامعة القديس يوسف في بيروت. لم أتمكن من الحصول على تصريح بتصوير شـــريط وثائقي عن أحوال تلك القرى، وملامسة الموت حيّاً، بسبب تشدد السلطات المحلية، خوفاً مـــن فضيحة معلنة، وهذا ما أحبـــط كل محاولاتي في توثيق الوجع، فطيلة ســـنوات الجفاف هذه، تجاهلت الصحافة الرسمية ما يجري في هذه الجغرافيا المهملة، عدا أخبار متفرقة عن زيارات وفود حكومية

بقصد إنماء المنطقة، وتوزيع مساعدات على أهالي القرى المنكوبة، غالباً ما تذهب إلى تجّار السلع المهرّبة، وحين اكتشف بعضهم أن المعلّبات، كانت منتهية الصلاحية، أنكر المسؤولون صحة هذه الوقائع بشدة، وطويت القضية على عجل، كما حدث في تجاهل تفشي أمراض الكوليرا، والملاريا، والسل، والسرطان، بقوائم طويلة من المرضى، والموتى، والمآتم الصامتة.

الموت يتجوّل بمخالب نسر جائع، في أروقة المشافي الحكومية المُهمَلة، وبين الخيم الممزَقة، والبيوت الطينية العارية.

ستمائة قرية منكوبة، نزح معظم سكانها إلى محيط العاصمة في مخيمات، لم تعترف بها الجهات الحكومية، أوالمنظمات الإنسانية، عدا مناسبات عابرة تصلح لترميم مانشيتات الصحف.

أطفال حفاة هجروا المدارس، وآباء وأمهات يعملون في مهنٍ مؤقتة، في ظروف إذلال لا تليق ببشر.

مهجّرون أم نازحون أم لاجئون؟

لا توجد تسمية دقيقة لنحو مليون ومئتي شخص، وجدوا أنفسهم في العراء والصمت والعزلة، ليس بسبب الحروب أو الاحتلال، بل تحت وطأة فساد حكومي ومجاعة مستمرة، شرّدهم عن مسقط الرأس قسراً، في أضخم هجرة داخلية تشهدها البلاد منذ الاستقلال.

في مخيّم «كناكر» جنوب دمشق، وعشوائيات العاصمة، تتوزع أكثر من ثلاثة آلاف عائلة عالقة، منذ سنوات، تعمل في أية مهنة متاحة: قطاف الخضروات، ومصانع الشوكولا، وورش البناء، والمداجن، وحراسة المزارع، من دون أية حماية قانونية، أو صحيّة (**عادت حفيدة دويك العبود إلى القرية، بيد واحدة، بعد أن التهمت مسننات آلة فرز الكونسروة يدها الثانية**)، يعيشون على ما يتيسرّ لهم من بقايا خضروات، ويشربون مياهً ملوّثة، وشاياً أسود، تحت خيم بلا كهرباء. لم تعترف بوجودهم السلطات، ولم تسمع بمأساتهم منظمة الأغذية العالمية «الفاو»، ولا المفوضية الأوربية لشؤون اللاجئين، ولا أي منظمة إنسانية أخرى، فهم في عرف الجميع، مجرد غجر طارئين لا يستحقون الاهتمام، أو الرعاية، أو الاعتراف بوجودهم في الأصل.

«هل سنعود إلى ديارنا يوماً، وينبت العشب مرةً أخرى أمام البيوت؟»، يتساءل دويك العبود الذي مالت به أحوال الدنيا، ووجد نفسه مشرّداً، وأعزل، بعكاز يحمي قدمه المبتورة، في أرضٍ بعيدة، يعيش على فتات أجور ضئيلة، مقابل عمل بناته الخمس في قطاف الخضروات والفواكه، والخدمة في البيوت.

بنبرة أسى و تفجّع يقول «الديرة طلبت أهلها»، ثم يضيف متذكراً محنة جاره الذي بقيت جثته في برّاد الموتى خمسة أيام، بانتظار تأمين أجرة سيارة إسعاف لنقله إلى دياره: «أخشى أن أموت غريباً هنا، ولا يجد أبنائي ما يكفي من نقود لاستئجار سيارة تعيدني إلى مقبرة أسلافي.. أرغب أن أُدفن هناك..هذا الهواء يخنق روحي».

الحياة الطارئة لهؤلاء المهجّرين قسراً، جرّت معها مشكلاتهم القديمة المتوارثة إلى زحام العاصمة،إذ لم يتورع شقيق حسنة السليمان من نحرها بسكين، داخل غرفتها في حي وادي المشاريع، عند تخوم دمشق، ذات ظهيرة حارّة من تموز، أثناء غياب زوجها حسن العويّد في عمله، انتقاماً لشرفه الضائع، وذلك بعد أن علم بمكان وجودها، عن طريق عسكري يقطن في البناية نفسها. كانت حسنة قد هربت سرّاً مع حبيبها إلى دمشق، دون موافقة الشقيق على زواجهما، وكان لا بد أن يطوي صفحة العار من سجّل العائلة بقوة طعنات سكين مطبخ مثلّمة.

قطعتُ المسافة إلى نهر الخابور مشياً على الأقدام، بصحبة حسين جدعان، وقت الغروب.

كانت الأراضي الزراعية قاحلة تماماً، تغطي سطحها نباتات شوكية، كما زحفت الملوحة إلى أطرافها لتلتهم ما تبقى من أراضٍ خصبة.

رتل أشـــجار التوت عند تخوم النهر، تحوّل إلى بقايا أغصان جافة. القبرات التي كانت تبني أعشاشها عند أطراف سواقي القطن هجرت بيوضها أيضاً. توقفتُ قليلاً في المكان الذي كان يظلل أسعد الفاضل في ظهيرات الأمس البعيد، محاولاً اســـتعادة صدى مغامراته القديمة وأغاني مذياعه، ثم بقايا ضحكة مصعب مطر الحسون، وشتائم حمود الأخرس، وطعم التوت، ولهاث بدرية الشـــهاب في سواقي حقول الذرة، في قيلولاتنا السريّة.

صعدتُ إلى الهضبة التي تطل على النهر.

كان قاع النهر يشبه مستنقعاً ضحلاً، عدا بقايا نباتات لا تزال تقاوم الجفاف. تذكّر حســـين جدعان السعالي التي كانت تخيفنا، وعواء بنات آوى، ونقيق الضفادع، والأفاعي، والأسماك، وأســـراب البط، وأشـــجار الزل، والطرفاء، وكيف كنّا نجتاز النهر سباحةً إلى الضفة الأخرى، لنستلقي فوق الرمال تحت لهب شمس الظهيرة.

قال حســـين جدعان بكل طاقته على الأسى والضيم، محاولاً كسر الصمت الذي أصابني بغتةً: «لا يكفي الســـخط وحده في تبرير هذا الاعتداء على طفولتنا»، ثم أضاف وهو يســـحب نفســـاً عميقاً من سيجارته «وعلى ما تبقى من عمرنا المهدور».

كنت أفكّرُ بما صنعه الجفاف خلال سنواتٍ متعاقبة، وكيف انقرضت

طيور وحشرات ونباتات، وكيف تداعت بيوت الطين التي هجرها أهلها مرغمين، لتنبتَ بدلاً منها بيوت إسمنتية خانقة.

لعل التصحّر لم يتوقف عند حدود الطبيعة، بل اقتحم عقول البشر وأفئدتهم.

تصحّر في مسامات الوجوه.

تصحّر في حركة اليد وهي تصافح يداً أخرى.

تصحّر في المآتم والأعراس.

تصحّر في الأرواح، وملوحة تنخر التراب إلى عمق خمسين متراً.

(هل سينخر الملح عظام الموتى في قبورهم؟).

أقفُ عند تخوم قرية مقفرة. ألوذُ بزجاج نافذة السيّارة، ريثما تعبر عاصفة رملية عاتية. كان زمهرير العاصفة قد حجبَ الرؤية تماماً، إنه العجاج مرةً أخرى، يهبّ بجنون. يهبّ بكل غطرسة الرمل.

يتكشف المشهد أمامي، إثر انتهاء هبوب العاصفة، عن فتى يقود دراجة هوائية، ويبتعد في الصحراء، يطارده عواء ذئب، وخفق أجنحة قطا، ووجوه مكلومة، وحوافر خيل.

يبتعد، يبتعد، يبتعد إلى أن تلاشى إلى نقطة سوداء في السراب المتموج في تلك الظهيرة القائظة، فيما كان مرافقي يردد باستسلام يشبه

الأنين قصيدة لشـــاعرٍ بدوي يدعى جلّود الصليبي، في وصف مذبحة قديمة شـــهدتها هذه الرمال المخضّبة بدماء أسلافي «هذي الجزيرة ما تجي إلا بالسيف».

جدتي، هل سيأتي الغزال حقاً؟

دمشق – أواخر 2010

للمؤلف

- ورّاق الحــبّ (2002)، (جائزة نجيب محفــوظ للرواية العربية– الجامعة الأمريكية في القاهرة – 2009)
- بريد عاجل (2004)
- دع عنك لومي (2006)
- زهور وسارة وناريمان (2008)

البريد الالكتروني: khalilsw5@gmail.com

" أستيقظُ ليلاً و قد أرهقني الفزع والعطش، أوقظُ جدتي بصعوبة في نداءات متكررة، وأقول لها "أريد ماءً" تجيبني من قلب النعاس "نمْ..نمْ، سيأتي الغزال، حاملاً قربة ماء ويرويك". أنظرُ إلى باب الغرفة المغلق، ثم إلى النافذة المشقوقة قليلاً، أتوقع أن يأتي الغزال من النافذة بقفزة واحدة، ثم يتوقّف فوق رأسي ، راخياً فتحة القربة ليروي عطشي. أنتظره.. أنتظره..أنتظره، إلى أن يأخذني النوم مجدداً، في أحلام غامضة. استيقظ في الصباح، وقد فارقني العطش تماماً. أفكّرُ بجديّة، وأنا في الطريق إلى المدرسة: هل أتى الغزال حقاً؟".

" من الرواية"

دار رفوف للنشر

آفاق AFAC